www.kotobarabia.com

قصص

الديوان الأخير

عبد الحكيم قاسم

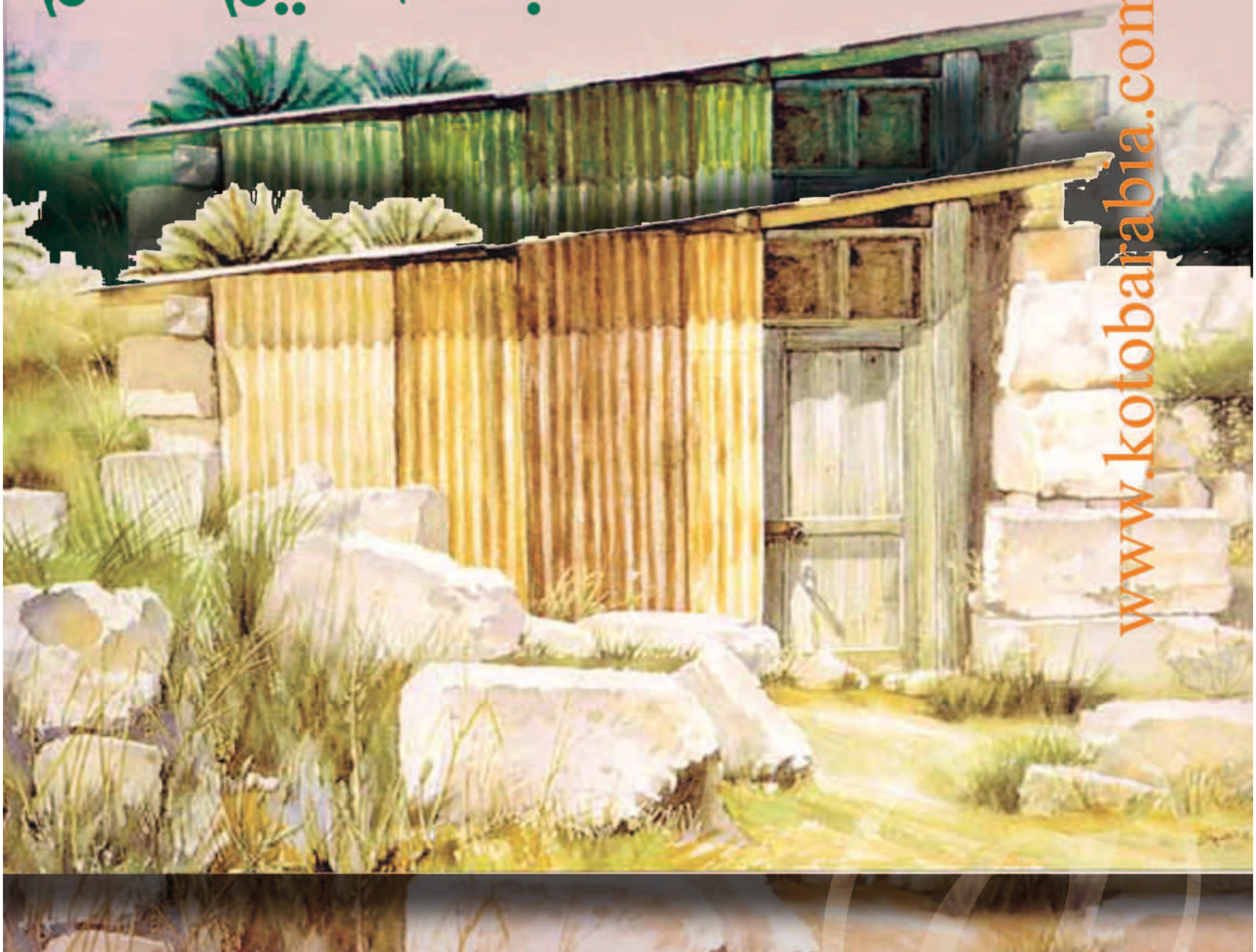

www.kotobarabia.com

الديوان الأخير

عبد الحكيم قاسم

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

العقاب

اليوم في هذه الدار جنون، خوار الأبقار والجواميس، ثغاء الشياة، قراق الفراخ، صراخ النساء والعيال، البخار من القدور، الدخان من الكوانين والأفران. والحمارة السوداء . في هذا الصخب المجتاح . أربعة قوائم واهنة ملتوية، وبطن ضامر يغطيها شعر شاب سمارَه بياض كثير، وذيل ن اص كالعصا، ورقبة مهزولة تثقلها هامة هائل ـة هاوي ـة متدلي ـة الأذنين، وعيناها الكبيرتان تحدقان في الأرض بلا كلال.

فإذا ما جنّ الليل وكبست الزريبة بالظلام، وصَ مَّت في الشقوق والقيعان حياة غريبة: صرير متواصل مكت وم، زفرات قلقة متألمة، رفة جناح منزعجة قاطع ـة وص رخة موجزة نهائية.تهاويل مبهمة تتقلّب في جوف الليل، والحمارة السمراء تحدق تحديقًا مرتجفا في الظلام ال دامس، لكنه ا لا تزال قادرة على كدّ الطريق المترب . مثقلة بالأحمال . في الشمس الحارقة. ظهرها الطويل نحل شعره وأثخن بالجروح الناغلة، تمشي تدفع أمامها هامتها الثقيلة، وعيناها الكبيرت ان مفتوحتان على تراب الطريق، لا يستحثها أحد على الإسراع،

عرفوا لها وقع خطوها البطيء المتواصل، كأنما هي قطعة من الأرض تتحرك متئدة في مسارها.

ألقى الولد على ظهرها زكيبة قديمة وقفز اعتلاها. ساقاه حول جنبيها مثل مجدافين غليظين وهي مركب بليدة. الولد على ظهرها ركبه ألف عفريت: يتقافز، يصيح، يغني.. يطوّح ساقيه بقوة. انحسر الجلباب على فخذيه: عضلتين مترعتين رواءً ونضارة، والكيان الهالك يجرجر ظلاً مهتزًا على حصباء الطريق، والشمس على الامتداد الشاسع كاشفة، وهامات الشجر مطرقة، والوريقات على العيدان وجوه طفلية ناعسة، والقنوات حالمة. والبنت تسير على البعد؛ الورد على جلبابها، تسند "الغلق" على رأسها بساعديها. عروس شهية، ردفاها تحت ثوبها تهمسان، تخفق مشبوبة مشتاقة. والحمارة تسير، حوافرها تترك على التراب بصمات مستديرة متتابعة.

ازداد الولد هياجًا. ثقيل الكتفين، ثقيل الذراعين، عظيم الكفين، يقبض على عرف رقبة الحمارة، يعصر الشعر الخشن بأصابعه الحديدية، يجلجل ضحكات عالية في الفضاء الصامت. استدارت البنت، ألقت عليه نظرة ثم عادت تسير. ربما أطلقت أيضًا ضحكة صغيرة! لأن الولد صاح صيحات

شبقة مدوية. والحمارة تسير سيرها المتأني الذي لا يتغير.

ربما أبطأت البنت، أو شلت خطواتها نظرات الولد الزاعقة برغبته، أو إرادته المتوثبة في ساعديه الهائلين المندفعين.. ربما، لا يهم. لكن المسافة تضيق حتى تدخل الحمارة متسللة إلى جوار البنت السائرة.

البهجة تجتاح كيان الولد كالريح العاتية. التفتت البنت له: وجنتاها ناضجتان مزغبتان، شفتاها ثمرتان شهيتان. وضع كفه على قمة كتفها . هشة في يده . عيناها طاعة مدللة. تُنَحّي يد الولد عن نفسها، يكاد "الغلق" أن يسقط من على رأسها؛ أنزلته وحملته في يدها.

امتلأ صدر الولد بقوة عظيمة، أحاط رقبة البنت . من تحت ضفيرتها . بيده. رقبتها نحيلة ناعمة، تحاول إبعاد يده فلا تستطيع. استندت بمرفقها على وركه الممتلئة، أحاط كتفيها بساعده، أدخل يده من طوق ثوبها. ثدياها صغيران ناعمان، تتأوه مبهورة خجلة، وهو يلهث لهاثا عاليا ولعابه يبلل شفتيه.

البنت تتعثر تكاد تتكفئ على وجهها، ملهوجة تعدل غطاء رأسها. احتملها الولد من تحت إبطها، رفعها في

الهواء ثم وضعها أمامه على الحمارة. وجهها لوجهه، الغلق يتطوح في يدها، والحمارة تحتهما تسد ير خطوه ا ال واهن الدؤوب.

أخذ البنت إلى صدره العريض: يقبّل رقبتها، يع ضّ شفتيها، يعصرها إليه. جلبابها انحسر عن سد اقيها، أزاح ه لأعلى، عرَّى ظهرها وأحاطه بساعديه، دفنت وجهه ا ف ي رقبته وهي تئن أنينًا مرتجفًا لاهثًا.

ثقلت خطوة الحمارة من حملها، ازداد اقتراب خشمها من الأرض حتى كان يحفّ بالتراب، لكنها تسير خطواته ا المتواصلة الكئيبة الإيقاع. ألصق الولد فخذيه بجنبي الحمارة، أشرع ركبتيه، أدخلهما تحت وركي البنت العاريتين، ومـ ن ظهرها دفعها إليه حتى أصد بحت محمول ة عل ى فخذي ه العاريتين. قبض عليها بقوة، دفعها إليه دفعة أخير ة حت ى استقرت، شهقت شهقة عميقة وانغرس سنها في لح م كتف ه الصلب، وبدأت أصابعها تضعف عن مقبض الغل ق حت ى خلته فسقط متدحرجًا، والحمارة تسير بالجسدين المتحاضنين.

يا له من فعل شنيع حملته الحمارة السمراء القديم ة على ظهرها، إثم قبيح في الضحى العالي، في هذه الشـ مس

الكاشفة. هامات الشجر مطرقة صامتة، وجوه الورقات الطفلية تصحو دهشة، والقنوات كابية أسيفة.

احتملتِ العقاب أيتها الحمارة السمراء، احتملي العقاب الذي سوف يحل. الويل لك.

بدأت الحمارة تهزل حتى أصبحت عظامًا متساندة، اتسعت عيناها تدمعان بلا انقطاع حتى عميت، وأصبح العمر كله ظلامًا مبهمًا مُخَوَّنا بالهمسات والصراخ والفوضى. أصابها الخبال، مطارق الرعب تدق رأسها، تنوشها، تدفعها، تجري تتخبط في الحيطان.

حديث المساء

حدثت زوجتي ذات مساء، فقلت لها:

. إنني مشتاق لأكل الحمام المحشو بالفريك.

مسّدت شعري وأنا ممدد على الأريكة في ردهة بيتي، وقالت:

. ذلك بأنك أكلت في الغداء عدسًا شحيح الدسم، إذن تجوع باقتراب موعد العشاء!

قلت لها:

. لا.. إن عدس الظهر كان طعامًا طيبًا جدًا، إنني فقط أتذكر أمي. يا ربي لهذه الأم الرائعة، حينما تدس برام الفخار حافلا بأصناف الخضراوات ولحم الضأن في الفرن..! يا الله.. يا الله.. كانت الرائحة تسكرني والمذاق..!

قالت لي زوجتي:

. إنني لم أجرب طهو أمك الرائع. كنت أعيش في طنطا وآتي لكل مرة في الأسبوع في أول زواجنا، أنظر لا أجد في انتظاري إلا الباذنجان المقلي!

قلت لها:

. لا تكذبي على امرأة ميتة! أكانت تتعسنا نحن الخمسة بالباذنجان المقلي، فقط من أجل قدومك أنت؟!

قالت لي:

. هذا الذي وجدته والله في طبق عشائي، قطع الباذنجان مسودة بالقلي!

قلت لها:

. أتريدين أن تقولي في السيدة الجليلة قولك؟ أتريدين أن تسوئيها؟ وما علمك بها؟ عشت أنت معها عدة شهور، وأنا الذي عشت معها خمسة وثلاثين عامًا طوالا!

قالت لي:

. إنني كرهتها! إنني أكرهها، ليس لي في ذلك يد ولا حيلة!

قمت من رقادي، استويت قاعدًا بإزائها على أريكة الردهة، وأخذت يديها في يديّ، كلمتها كلمات تفيض حنانًا، قلت لها:

أترين الرجل الذي يكره أمه، ويحقر ذكراها، أتحبينه يا امرأتي؟ أنا لست واحدا من هؤلاء! رحم الله السيدة

الفاضلة! كنت أعود للبيت، أفتح الباب على لهفتها، مزدهية الوجه، فرحانة بما صنعت لي عند رجوعي!

قالت زوجتي لي:

. إنني أكرهها، إنني أغار من حنينك إليها، كنت أتمنى لو حبلت بك وصنتك في رحمي، وأعززتك يا ولدي!

قلت لها ضاحكًا، ويداها ما زالتا في يدي:

. بطنك لا يتسع لي يا صغيرتي!

قالت ملاحقة مواصلة:

. يتسع لك، ولرغائبك وأحلامك، ونزقك ولعبك، وغضبك ورضاك.. ورضاك يا بني!

تركت يديها رويدا رويدا، وأرحتهما في حجرها. مشت القشعريرة في عظامي. قلت هامسًا:

. أنت تصغرينني بأحد عشر عامًا، ويوم تزوجتك كنت بريئة من ذلك المحال!

قالت شاردة العينين حالمة:

. إنني امرأة قديمة، امرأة قديمة، أقدم منك، حبلت بك، وتألمت وتوجعت، وجاءني المخاض وولدتك!

تقلصت أمام عينيها اللتين لا ترياني، وبدأت أنـ زاح متراجعًا عن الأريكة وأنا أهمس:

. أه..!

وهي تواصل حديثها:

. ليس في الدنيا امرأة لها عليك حق الولادة، أنا فقط الوالدة، بطني لا يزال يحن لك، تكومت فيه شهورا وسـ نينَ، وأنا حملتك وهنًا على وهن!

بلغت أقصى الأريكة متربعًا ويداي متعانقتـ ان فـ ي حجري، والقشعريرة تأخذ بعظامي، وأنا أحدق في زوجتـ ي، وصوت تردد أنفاسي يعلو، وهي تواصل:

. لا تشبه أحدا إلا إياي! لا.. هذه أختـ ك؟ وتلـ ك أختك؟ وذلك أخوك؟ لا براء لرحمي من الحبل بعدك.. أنـ ت وحدك، لا شريك لك!

أغسطس ١٩٨٧

صانع القهوة

وأنا اشتريت لنفسي لفة فيها شد طيرتان، وانتحيـ ت جانبًا: آكل، أستطعم الجبن بالزبدة. شدني وجه الفتى المكلف بصنع القهوة هنا: واقفا قدام الموقد، كلما فرغ من صنع كوب ناوله لمنتظره، أو نادى على الجالس يرقب. ألـ وك لقمتـ ي، وعيناي على الجندي الذي يخدم في المقهـ ى، أتطلـ ع أرى استياءه وقهره، وكآبة ملامحه تستر ثورانا داخله.

تذكرت عمي وابن عمي اللـ ذين قضـ يا خـ دمتهما العسكرية . وكان وقتهما رديئًا . يأتيان بالتضرر والمواجع والشكوى، ويرحلان رجوعًا بالمدامع. هذان، وكل من جرب الجهادية، قبلهما أو بعدهما، حكاياتهم حفظت وبقيـ ت سـ حبًا داكنة على الجبين وفي العينين. نعم.

تذكرت، مريرة الذكرى، إلا أن الجبن بالزبـ د فـ ي شطيرتي بقي ملذا. جاء رجل عجوز يلبس منامة مخطط ـة، وفوقها معطف منزلي من الصوف المربعـ ات جلـ س إلـ ى جماعة كانوا في انتظاره، حيوه قائلين: " يا سيادة اللواء.. يا باشا ". والرجل العجوز سَرَّهُ أن تجلت رتبته رغم ملابسـ ه. قال محدثا الجماعة المحيطة به: " إن الجراحة التي أجريـ ت

لي نجحت، الحمد لله، سأخرج بعد خمسة أيام.. آه ". ثم كلم المجند الفتى المشغول بالمشروبات الساخنة للإفطار، كلّمه دون أن يستدير له. قال يسأله: " عندك كوكاكولا؟ " وهذا اقْتَمَّ لون وجهه سترا على الغل الذي يبين في أعصاب يديه. قال ردا على العجوز اللواء: " لا ". وأنا قلقت. تابعت رسوم المشاعر على ملامح الوجهين، لكني بقيت أمضع قضماتي من شطيرتي حسنة المذاق.

تكلم اللواء العجوز يكاد يصيح، وذراعاه طائران، قال: " أخ.. طيب.. عندك شاي؟ إذن آتني بكوب يا ولد! ". والولد صنع الشاي، وملأ الكوب، ثم أزاحه على طرف الطاولة التي يقف قدامها. تفكرت: هل يقوم اللواء بتناول شايه؟! وقفت اللقمة في فمي. تأملت وجه المجنَّد المكلف بصنع القهوة. يحسن به أن يكون في قريته الآن. حتى قام واحد من الجماعة المحيطة بالضابط، وجاءه بشايه، ولما بدأ يرشف من كوبه بدأت أمضغ. إن الجبن بالزبد وحسن الصنعة غريبان على قريتنا.

أمضغ خبزي وأنا أتطلع إلى وجه الفتى: يرهقه كتمان تغير خاطره، وستر الانفعالات. عجبت. أقبل ضابطان

طبيبان على وجهيهما سهر الليل ومشقة الخدمة، جلسا في ركن بعيد، بذلك لم أسمع حديثهما، لكن عيونهما ذابلة في دوائر رمادية. ميزت نداءهما على القهوة في صلف مرهق، والإجابة صمت مكتوم، وأنا تنبَّهت.

صنع القهوة بالعناية الواجبة، وبانصراف أفرغها في فنجالين، نظر لهما، راقاه، نادى على الضابطين الطبيبين: " القهوة! " وجاءه ردهما حاسمًا باترًا: " احملها لنا هنا..! " وصفق أحدهما على الترابيزة التي يجلس إليها بفرشة كفه.

وأنا فقدت كلية الرغبة في الأكل، بقيت مني شطيرة، أعدت لفَّها في ورقتها، وأحكمت اللفّة؛ أراقب الذل الذي بلا آخر على وجه الفتى الموكول بالخدمة. مَرَّ بي حاملاً الفنجالين، وضعهما حيث صفق الضابط الطبيب أمامه بفرشة كفه، ثم يمر بي متدلي الذراعين ساقط الرأس كسير النظرة، إلى حيث يقف قدام الموقد.

وأنا قمت له، وقفت قدَّامه حيث يقف الذين لهم رغائب في مشروب سخن، ابتسمت له، كدت أضحك له من فرط أساي. طلبت شايا وبقيت حتى أخذت كوبي وعدت

لمكاني أرشف مشروبي، أفكر في الشطيرة: هل أحملها معي إذا انصرفت؟

الضابطان الطبيبان قاما ومضيا، الفتى المجند أسرع إلى حيث كانا، منقضّا متحفزًا؛ صحت في نفسي: " إنهما انصرفا..! " لكنه أخذ الفنجالين وعاد. مرّ بي، لما وازاني استوقفته، قلت له: " هل لك في شطيرة..؟ " اختطفها مني، ولوّح بها وألقاها في سلَّة القمامة. صعب عليّ أمر الشطيرة: إنها لقمة مبروكة دسمة، والواحد لا يلقي بالنعمة في القمامة.. حرام. لكن هذا فداء غضبة الفتى. إذن يسامحنا الله.

نوفمبر ١٩٨٧

ليلة رأس السنة

كل شيء بدا رائعًا: الدنيا غسقت، وبدأت المصد ابيح تتألق في السماء البديع. وراء المباني العالية تلتق ي السد ماء بالبحر في الأفق القريب، تختلط حمرته فتلون الجهة الغربية بالقرمز والأزرق الخطيف، من هنا، من مكانهما في شد رفة شقتهما، تحجب عنهما العمائر جمال البحر ساعة الغ روب، لكنهما يحلمان. الخمر مُرَّة وحارقة، يعب عبد العزيز منه ا أكوابًا مترعة، ويزري على محمد تردده في الشرب وتألمه، وأنه يتناول كل آن شيئًا من المزّة كي يحسن ريق الخمر في فمه. يزعق فيه:

. اشرب يا سيدي! اشرب، ودع للخمر قيادك.

ضحك محمد، وأغرق في الضحك حتى بانت أسنانه؛ أُصُولُها يجتمع حولها الجير وبقايا الأكل ملوثة بالدماء. محمد يعالج داخله الخوف من هجمة المرض؛ إنه لم يجرّب الخمر كثيرا قبل، هل يُرزأ بنوبة من الإسهال؟ ويزور المستشـ فى؟ ويجيء عبد العزيز لزيارته عاصفًا زاعقً ا، ثـ م ينصـ رف ويتركني لآلامي؟ ضحك وردَّ على عبد العزيز:

. أسلمها قيادي يا سيدي، عساها تحسن قيادتنا.

ورنت عبارة عبد العزيز، ورَدُّ محمد حاملين تـ ـراث فحول الشرب، أكانت الخمر دائما مُرَّة وشربها عناءً؟

يخفي تضرره بالمذاق والرائحة، يتناول لقمـ ـة مـ ـن المزّة ويواصل عبَّ الماء الرديء.

بدأ الخدر يمشي قليلا في جسمه، والناس هنا وهناك قبالته بدأت تتلون وجوههم، والمرح يبـ ـرق فـ ـي عيـ ـونهم، والابتسام بشفاههم، عبد العزيز بدأ يضحك لهم. ضحك آخر غير الذي اجتمع هو ومحمد عليه: ضحك آخر نابت من كل جسمه، لا يمكن مقاومته، وهو ممرور في جوهره، يوشـ ـك يتحول إلى شهقات دامعة. قال محمد:

. اشرب يا بني.. واسكر.

ضحكا. ملأ عبد العزيز الكأسين، رفع كأسه ودلقهـ ـا في فمه وبلعها، وبعدُ أحكم إغلاق فمه وإغماض عينيه، وهو يهز رأسه بعنف مستبشعًا الشرب، فتح العينين المخضـ ـلتين بالدموع، وفتح فمه وشهق شهقة قوية. فاتت تجربة الكـ ـأس مرة أخرى، نظر إلى محمد، يعاني بعنف من الشرب. أغرقا في الضحك معًا، ضحكات لها ذيول.

القارورة من الزجاج الأخضر، مخبأة في سور الشرفة حتى لا يلمحها أحد من الجيران. احتملها عبد العزيز في يده وعرضها للنور ليرى مقدار ما استنفدوه في شربهما، بقي فيها ثلثاها. أقرَّها في مكانها وقال لمحمد:

. هذه القارورة أهدانا الكواء إياها.

ضحك محمد وقال:

. إنه رجل صاحب مزاج.. في القوارير الفارغة!

وضحكا. وحضرت عبد العزيز سحنة الكواء: وجهه في حجم منقار دجاجة، وأكمة شعره كثيفة هائشة، وهو يغني إذ ينحني على عمله، وأصابعه تشبه مخالب الدجاجة، تكشف الوسخ على الملابس المكوية.

قال عبد العزيز:

. الله يلعنه..

وضحكا.

على أي حال رجع عبد العزيز عصر هذا اليوم من الكلية ممتلئاً حماسة. دخل على محمد في غرفته، هكذا رآه. تطلع محمد إلى عبد العزيز، وهو لا يبدو عليه قصد تغيير ثيابه، أيخرج ثانية؟ وضع الكتاب بجواره، كأن يقرأ من

استلقاء، وأمه جالسة على فرشة قدام السرير، أنصت مبتسمًا إلى عبد العزيز الذي قال:

. اليوم رأس السنة.. الحق بي في غرفتي!

خرج وبقي محمد في رقاده، شقي طوال النهار بـ . . "مصادر الالتزام " وشقي طول النهار بثرثرة أمه. لو كانـ ـت ضمَّته على صدرها لأنصت لخرخشة الأنفاس من رئتيهـ ـا، واستقر ونام.

قام، استوى جالسًا، دلّى ساقيه يبحث لقدميـ ـه عـ ـن شبشبه. يفكر: علام استقر عزم عبد العزيـ ـز؟ مـ ـاذا نحـ ـن فاعلان في مسائنا هذا؟ خرج من حجرته نحيلا منحنيا فـ ـي جلبابه الكستور المخطط. سيعبر الردهة إلـ ـى غرفـ ـة عبـ ـد العزيز، صارفًا نظره عن ثرثرة أمه التي بلا نهايـ ـة. أمـ ـا كتاب المدني فهو همّ مقعد مقيم. يدوس برفق علـ ـى بـ ـلاط الصالة، ويريد أن يعرف ماذا انتوى عبد العزيز؟

وعبد العزيز واقف في شرفة غرفته يتأمل النهار في عصريّة شتوية. الجور مشمس رائق دفيء، فـ ـرح بالـ ـدفء والصحو في المناخ. النهار لا يكـ ـف طـ ـوال النهـ ـار عـ ـن الهمس.. الهمس لعبد العزيز بنوايا الاحتفال. الناس متغيرون

بالحبور، يسرعون متلهفين، يضحكون ويزعقون. كل ذل ك بشكل مفاجئ، يراقبهم عبد العزيز مندهشً ا، وتمل ك قلب ه نبضات الفرح. قبالته بيت قديم له شرفة كبيرة حافلة بأحب ال الغسيل، لكنها لطيفة مغسولة البلاط. وفي هذا البي ت أس رة مصرية، لها بنت عذبة وسيمة العينين، البي ت المج اور . الذي بني حديثا وله شرفة صغيرة أنيقة . فيه تسكن أس رة سويسرية، لها بنت شقراء رائعة. طاقة الح ب ل دى عب د العزيز مقسَّمَة بين هاتين الغادتين. أيسع السرّ الكامن في تلك العصرية من ذلك النهار أن يبعثهم ا؟ أن يخرجهم ا إل ى الشُّرف؟ أن يطلعا له ليتفرجا على فرحته ويباركا س روره بأيديهما؟ وخرجتا! أتستجيبان لرؤية النهار؟ أم لإلحاح دعوة عبد العزيز؟ المصرية خرجت لتنش ر جوربه ا الأب يض الصغير، ومنديلها المورد. السويسرية تدلي سلتها من حبله ا الطويل للبواب الجالس على أريكة أمام باب بي تهم، تكلّم ه كلمات عربية مهشمة حاسمة باترة. ينقل بينهما عبد العزي ز بصره، يخف وزنه حتى استحال زنب ورًا أحم ر، يطي ر وينطلق، ثم ينقض على عسلهما، ثم نكص، ثم حلّ ق. وم ا الزّنُّ صوت جناحيه، إنما هو أزي ز قلب ه. هم ا عش يقتاه

المستحيلتان، إنما المتاح لـ ـه أجسـ ـاد الموسـ ـات المرهقـ ـة المبقعة: سعدية ولطيفة وفاطمة الدّكر. فليحسن به أن ينسـ ـى ذلك، وأن يطير وأن يئزّ حول طبقي عسلهما.

المصرية صغيرة القدّ، مرسومة: هنا الامتلاء وبعده النحافة. وتكور صدرها يفتق التطريز. لايطلّ، لكنه يوشـ ـك. وحلية الذهب ترتاح هناك آمنة قريرة. أتنشـ ـر غسـ ـيلها، أم تمارس طقوس رقصة عميقة الأسرار يدركها الدرويش مثل عبد العزيز؟ اليدان تتحركان متناسقتين بديعتين، والأصـ ـابع تتنقل فتخلق نغمًا؛ يبدو في كبرياء جسدها ولدونته وتـ ـأوّده، ويبدو في قرمز شفتيها ووجنتيها، وسواد شعرها المعقـ ـوص لأعلى، والسواد اللامع في عينيها الثقيلتي الأهداب، تنظر ولا رأت كأنها تحلم. نظرت لعبد العزيز وللبنت السويسرية، ثـ ـم استدارت ثم دخلت مُخلية مسرح الشرفة. صـ ـار موحشـ ـا، أتأمله، وهي تتأمله مـ ـن خصـ ـاص البـ ـاب الـ ـذي أغلقتـ ـه وراءها.البنت السويسرية منحنية على سور الشرفة، متكئـ ـة بمرفقيها، وكفاها وأصابعها متوترة في قبضها علـ ـى حبـ ـل السلة، وساعداها سارحان رائعان، فيهمـ ـا دفـ ـء الجرانيـ ـت ولونه الورديّ، وشعرها الـ ـذهب ينسـ ـاب معقوصـًـ ـا حـ ـول

وجهها، وشفتاها مزمومتان، وفيروز عينيها استقرّ حيث هوت السلة، ثم تقوم، تجذب السلة وتطوي الحبل؛ ممشوقة، وحرير الثوب يبدي بيان جسمها لا التواء فيه. ركنت السلة وأخذت ما فيها، ونظرت حواليها جاسرة. وحينما صادفت عبد العزيز عيناها ارتطمت نظراتها بحائط من الأسمنت المسلح يخفيه. دخلت دونما التفات.

أهذا الفرق بين بنتين؟ أم الفرق بين جنسين؟ أتراه يحب أيهما؟ إنه مفتون بالمصرية ومسحور بتشابك الخطوط المنحنية في كيانها، وهو أيضًا معجب بروعة الاستقامة وحدتها الوسيمة، من هنا وإلى الأبد في البنت السويسرية، أم هو مكتوب عليه واحدة من المومسات، فتهبط به الأيام عن مستوى الشرف، عن مستوى الحلم، فيظل يهوي ويهوي؟

جراءته يخفيها في الليل، في كتبه. يقرأ عن النظريات الكبرى ويؤمن، وينظر لحياته، ثم يتلو ذلك على محمد وعلى غيره ممن لا يفهمون، ولا إلى أشعاره التي كتبها في ساعات يأسه ينصتون، ثم يبقون بعد انتهاء النصّ ذابلي العيون متدليي الشفاة، يقلب وجهه في العصرية، يمرّغ خديه في دفء الشمس الصفراء.

دخل عليه محمد قال له: أنت وشرفتيك يا حبيبي!
ضحكا. وواصل محمد:
. أنت لا تعرف آخر أخبار "وسيلة" وأبيها البواب، لا يأتيني من المنور إلا أخبارهما!
قاطعه عبد العزيز:
. اليوم رأس السنة. سنحتفل. سنشرب حتى يظهر الخيط الأسود من الخيط الأبيض. أين قارورة الكواء؟ سننزل نملأها. قال له محمد:
. أغير ثيابي أم أنزل هكذا؟
نظر عبد العزيز إلى محمد، تأمله شاردًا. ثم قال له:
. تعال هكذا. لا بأس.
نزلا الشارع. محمد في جلبابه وشبشبه ومشيته المستخزية المترددة، والخجل على وجهه والذبول في عينيه، وفمه مفتوح فيما يشبه الابتسام. وعبد العزيز متوهج، يفرط في الثرثرة، لكن جزءًا صامتًا من نفسه لا يجرؤ على الالتفات وراء؛ ليضبط الابتسام السافر من صاحبه، وعلى أفواه الناس في الشرف. أخذ ساعد محمد في ساعده، وقارورة الكواء في يده الأخرى. في الشارع الرئيسي

فاجأتهما نسمة باردة تأذّى محمد منها، والزحـام وانطـلاق العربات، واللهوجة الغالبة على كل مزاج. متى نرجع بملء القارورة من قاتل الحشرات هذا؟ وعبـد العزيـز اسـتثاره الزياط في الشارع وازدحام الزبائن وإقبالهم على الـدكاكين. والنوافذ في العمائر العالية، تسـترها السـتائر المخرمـات، وتفضح ما وراءها الأضواء الباهرة، والموسـيقى، وسـعى السيدات يقضين حوائج الاحتفال.

تلك نوافذ قلّت في العام المنصرم: الخواجات رحلوا، وجاء المصريون سكنوا مكانهم. بقيت إذن نوافذهم صـامتة، أو فيها رجل أو امرأة في ثياب النوم.

يومها سار عبد العزيز في طابور الحرس الـوطني. آلاف: سلاحهم البنادق الروسي، والمدافع السريعة الطلقات، عرض رائع، والخطوات تدب مزلزلـة، والقلـوب تخفـق مروّعة. وكان قد جاءهم ضابط كبير في معسكرهم في كلية الهندسة، وخطب هامسًا، لم يسمع عبد العزيز كلمة واحـدة من خطابه. حل الصمت كاملاً، سمعه يقـول: " الله معنـا " وحسب أوامره سرنا في الشوارع لنقول للناس: " هـا نحـن ذي"وكان جنون الفرح في وجوه المصريين، وغُلِّقت نوافـذ

الخواجات. لكن جزءًا صامتًا من نفس عبد العزيز يقول: لننس ذلك. اليوم يوم احتفالنا.

وقف قدام بائع الخمر. والدكان نظيف خالٍ من أي شيء، إلا من برميل خشبي هائل مستلقٍ على جنبه يستغرق معظم الساحة وفيه صنبور صغير، تحته وعاء يتلقى فيه القطرات. وعلى كرسي يجلس صاحب المحل اليوناني خلف قمطر. حليقا مصفف الشعر، يلبس حلة كاملة غامقة ورباط رقبة ملائما، وأمامه راديو يذيع موسيقى راقصة وعلى واجهة محله كلام باليوناني كثير، وكلمة عربية واحدة: "طفية". وعادا بالقارورة مليئة، وتركا صاحب المحل يتأهب لإغلاق دكانه والإسراع إلى الاحتفال.

اشتريا جبنة رومي وزيتونًا مخللا وخبزًا. فتح عبد العزيز باب الشقة ودخل غرفته، حيث يعدّ الشرفة لجلوسهما، ومحمد دخل على أمه. هتفت به من خلال لهاثها وخرخشة أنفاسها:

. أتشربان مرة أخرى؟

ضحك لها محمد وقال: . الليلة رأس السنة. كل سنة وأنت طيبة.

وتركها ليلحق بعبد العزيز.

وكل شيء استقر: الترابيزة عند ركبهما، وعليهما المزّة والأكواب وتحتها قارورة الطفية. وبعد أن جرعا كأسين أو ثلاثة بدت المصابيح كأنما زاد تألقها في غبش المساء الذي يعتم كل آن. ووراء العمائر العالية: الأفق مشحون باللون الرمادي يخيف والبحر تحته ساكن. في قاع الشارع هَمْسُ البوابين أمام البيوت، والشرفتان خاليتان إلا من ضوء خلف الخصاص، وهَجَسَ السويسريون في احتفالهم وصمت بيت المصريين.

يتحدثان همسًا، وعبد العزيز مشغول بما يحدث عند جيرانه الخواجات. قال لمحمد: اشرب يا سيدي.

قال محمد لعبد العزيز:

. أنت لم تسألني عن أخبار "وسيلة" وأبيهما وصاحبهما، وضيفهما كل مساء؟

قال عبد العزيز لمحمد: احك.

غرفة محمد لها نافذة مطلة على المنور، الذي هو مستراح غرفة البواب، باب لها يفتح فيه، وفيه أحبال غسيلهم، وأغراض المعاش، وفرشة يفترشونها في الأماسي.

محمد يتأمل " وسيلة " كل آن يطل عليها من خصاص شباك مغلق حتى اعتاد سواد لونها النوبي، فأصبح يتشهّاها في قميصها الخفيف، بعد أن غسلت هدَمَها السود ونشرتها. وجهها: فيه تغلب السمة الأنثوية سمات الرجولة، لكنها تبتسم عن صفين من الأسنان بيض، فيهما أنوثة مليئة بالرقة والحنان، وصدرها يتكور عامرًا بالفتوة وحوضها. يتشهاها محمد ويعكف على الشباك أوقاتا طويلة.

قال محمد لعبد العزيز:

. أنت تعرف الشاب؟ يأتي كل مساء زائرًا، ويجلسون ثلاثتهم في المنور.

قال عبد العزيز لمحمد: أنا أعرف.

وهو يعرف أن زوج " وسيلة " مات، فلحقت بأبيها في الإسكندرية لم يعد لها بيت في النوبة، ولا أمل في بيت.

قال محمد لعبد العزيز:

. كل مساء يأتي: معه ورقة الدخان المعسّل، ويلقي بها في حجر وسيلة، وهذه تُعَمِّر الجوزة وتولعها، وتطلق من فمها ومن أنفها زوبعة من الدخان.

قال عبد العزيز: يا سلام يا سيدي.

وتعطي الجوزة لضيفها، ويعطي هذا الجوزة لأبيها، وتدور الكراسي على الفرشة في المنور، والدخان كثيف محلق، وابتسام " وسيلة " عن أسنانها البيض، ونظرات عينيها اللامعتين محيطة بوجه الضيف، ووجهه الطفولي العذب الوسيم ناكس.. هكذا: تبادل حنون بين الشابين، ففي جلسة يتحول فيها ثالثهما مغفلاً.

قال محمد لعبد العزيز:

. كنت أظن أن الأب جالس في حراسة كنز ابنته، لكنه ثار بالأمس لإهمالهما إياه، وخرج عنهما، وبقي بعيدًا ساعة، تصورت الولد سيقفز على البنت، أو البنت تأخذه في حضنها، لكن الأشياء بقيت رائقة: تعمّر له الجوزة، يدخنان في صمت، حتى عاد الأب.

صاح عبد العزيز صيحة حَرَّى: آه.. آه.. يا قلبي المحزون.

قضت عليه الخمر، وأمرضت جسمه، وألهبت ظمأه للشرب، والأضواء تتلاعب، والشرفة صامتة، والأخرى الثانية واشية بزياط وصراخ. أيستطيع أن يميز صوت صراخها؟ هل فيه قدرة على أي تمييز؟

قال عبد العزيز لمحمد وقد اتخذت ملامحه سمة جدية:

. عن " وسيلة " أقول لك إن الزواج مؤسسة فاشلة، الرجل ترك زوجته وعياله في النوبة، والزنا كيف يكون بامرأة تخون زوجها المقبور، وبرجل متزوج وله عيال.. فضيحة!

ثم صمت، أفرغ لهما كأسين، جرعاهما، ثم واصلا شربهما في كآبة ومرض. تفكر محمد أن حكاياته تسبب الكدر، وتفكر عبد العزيز أن حكايات محمد هي مصيره المرتقب.

انفتح باب الشرفة في بيت السويسريين، وخرجت ثلة من شباب المحتفلين وفي مقدمتهم البنت وأثيرها، يدلقون الخمر من القوارير الفاخرة، ويرمون بالأطباق الصينية، فتهوي وتتهشم بأصوات مفرقعة، وينطلق صراخ الفرح من الشبان. البنت السويسرية أحاطت رقبة أثيرها بساعديها، وقبلته في شفتيه، صفقوا لها . رفقتها من البنات والصبيان . ثم دخلوا جميعًا وأغلقوا باب الشرفة وراءهم.

صدم عبد العزيز، تكلم وهو دائخ:

إنهم يدلقون الخمر الباقية في القـواريرمـن العـام الماضي، ويكسرون الأطباق القديمة.

كلم محمد نفسه: ذلك؟ أم حرقتك القبلة على فم الولد؟

وعلى وجهه ابتسام غامض، ووجه عبد العزيز ساقط أسيف، تكلم بطيئًا:

. ليس أمام " وسيلة " ولا زنا. أترى؟ ليس لهـا إلا أن تبادل حبيبها نظرات مقهورة.

ثم اشتعل وتوهج فجأة، وتنفس بقوة، ثم قال:

. لننزل الشارع، لنر كيف يفعل الناس بعام مضـى وبعام مقبل. وقبل ذلك كأس للطريق.

في الشارع الرئيس أمم غفيرة، يسيرون فـي شـكل تظاهرة، يهتفون بالموت والحياة لمأفونين لا يعرف أحد عنهم شيئًا، يتفرقون جماعات شتى. يضحكون ويكركعـون، ثـم يصرخون، يلم شملهم من يتبرع بالهتاف لهـم، ويـرددون خلفه. وفي الشرف والنوافذ وجوه مصرية مجنونة بـالفرح، يزعقون ويضحكون ويصخبون، وفي أيديهم الجرادل والحلل المليئة بالماء، يدلقونه على رءوس الناس.

ضحك محمد حتى كاد ينقلب على قفاه، وهو يقول:

إنهم يدلقون خمر عام انصرم.

وفجأة سقطت عليه دفعة ماء أغرقته تمامًا. رآه عبد العزيز يترنح في وقوفه، ويشهق شهقات مكتومة، حتى أوشك أن يسقط.

١٥/ ٩/ ١٩٨٨.

قفز وراء السنين

كنت وشيكا راجعًا من غربتي الطويلة، وعائدا لقريتي، وجالسًا في شرفة بيتي. الشفق يجلل أطراف الأفق، وأنا أتأمل حلول صمت المغربية في الشوارع التي تمتد؛ ترفعها الكيمان وتهبط بها. والبيوت حراس على ملامحهم كآبة المساء المقبل. ناكسة مثقلة تنتظر، أن تضوي المصابيح المعلقة في العمدان حاملة الأسلاك الكهربائية، فلعلها تضيء؛ تكسب لون المساء الكابي لمعة مترقرقة.

وقد كان، أشرعت عيني في قطرات الضوء الساجية المتباعدة، وعرضت شبح ابتسامتي للنور، أرهفت سمعي لأنفاس الحياة المقبلة من الشقوق والفرج بين كتل الصمت القائمة.

تيار الحياة لا يأبه بي. إنني لست واحدا من البارزين من أهل قريتي، إذا رجعت من غربتي سلموا عليّ ورحبوا بي، ثم تركوني لوحدتي بعد ذلك، فلم يكن لي إلا أن أقفز وراء السنين، أستجل مشاهد الحياة التي كنت أحياها في زماني، وأنا جالس في شرفة بيتي. بيت مبنيّ من اللبن، وحوله تشمخ البيوت مبنية بالخرسانة المسلحة، تنوِّرها

الكهرباء، وبيتي محروم من التيار وليس فيه مرناة، فأبقى في صمتي أتأمل المغربية تقبل بأنفاس الحياة الثّرة.

ها هو ذا تيار الكهرباء يمشي في أوردة الأسلاك، فينفخ الحياة صخابة في جسد القرية، المصابيح تُوسع للعيال ميادين اللعب في الشوارع فتكتظّ بهم، وبالرجال وبالنساء يمضي كل واحد في سبيله. يرتفع مُكَبِّر الصوت على سطح الجامع، ويرتفع صوت المذاييع، وتضاء شاشات المرناوات بضوئها الفضي، والشخوص يتحاورون ويأخذون ألباب النظارة فيثيرون الضحك والدموع.

فإذا بي أسمع زغاريد. ضحكت لنفسي: ها هي قريتي تنصب مهرجان المساء. وإذا الزغاريد تلحّ، وغناء البنات. إن هذا زفاف العروس. كركعت لنفسي بالضحكات وصدى ضحكي يبين على وجوه الناس العابرين، ويهلّل العيال ونحن كلنا نعد نفسنا لمساء حسن.

العروس تأتي متخطّرة، ملونة الوجه، تلبس رداء الفرح الأبيض، وعلى رأسها طرحة المخرّمات الناصعة، وحولها البنات صَدَّاحات بأغاني الفرح، دائرتهن مُؤطَّرة بلمَّة الجدعان، يجاوبن صدح الأغاني بالزعيق. سرت، في جسدي

نشوة رائعة تقفز بي وراء السنين. إنا كنا يلمَنا الفرح من قيعان كآبتنا، ويصرفنا عن أي لهو آخر، ونجري نحو بيت الفرح في مساء ليس منوّرا كهذا، لكن البنات يتغلبن على الظلمة الكابسة بالمصابيح ذات الشعلة يحملنها على رءوسهن ويحدّقن بالعروس حتى ينوّر وجهها بضوء الشعل وفرحة الزفاف. ونحن الجدعان قلوبنا متوهجة بالغناء والنور، نزعق بأشواق أعمق من المساء. شوق لكلمة حسنة في أغنية، لقطرة ضوء في المساء، لفرحة العرس.

فرحة الجدعان الآن موصولة بفرحة الجدعان في زماني، وصدح الأغاني بصدح الغناء على أيامي، وفرحة العروس. إنّا كنا شرهين للفرح لا نتراجع إلا بعد أن تزَفَّ العروس إلى الغرفة المبيَّضة الجدران، ثم نتجمّع تحت شباكها وندق بكفوفنا ونبحات قلوبنا، نطالب بمنحة من الكعك، ونظل نلحّ حتى تخرج أم العريس بحجرها مليان، فيخطف كل من قدر كعكة من حجرها.

إذا بي أسمع ولدا يصيح: " المسلسل " في صيحة ملهوفة حارقة، استحضرتني صرخته من حلمي وراء السنين، أفقت على موعد التمثيلية التي يذاع كل مساء جزء

منها، يا ربي! إن هذه جزء ضروريٍّ من سهرة المساء، فيجاوبه ولد آخر " المسلسل " ثم تصيح بنت " المسلسل " وأنا تسري في أعضائي برودة؛ إذا ينفَضّ سامر الفرح، ويجري كل واحد إلى بيته ليقبع أمام المرناة ويشاهد التمثيلية، وتبقى العروس وحدها مع أمها وأختها وبعض قريباتها يسرعن بها نحو بيت عريسها.

عدت من حلمي وراء السنين إلى حاضري أتأمّل بيتي المبني باللبن المحروم من التيار الكهربائي وليس فيه مرناة. بقيت في شرفة بيتي وحدي غارقا في كآبة المساء.

١٩٨٨

رقوء الدمع

في آخر سفرة إلى قريتي ثقل قلبي حتى أوشك أن يكون فيه حزن. آخذ القطار في أسفاري منصرفًا عن رفاق السفر. منشغلين بشئونهم يثقلون على صفو خاطري بما ثقلت عليهم وعثاء الرحلة. أخرج بانتباهي من النافذة، يسيح ناظري في مشاهد الريف وتطيب خواطري.

القطار قدري، وجريه يزلزل القضبان. حينما أسافر أسافر مستسلما للمشقة، يأخذني التطلع إلى الأشياء، ومهما تجددت المشاهد، إنما تستجد فيها أشياء لفرط تأملي.

في آخر سفرة إلى قريتي توهجت أشواقي واحتدم التذكر بمقدار مسافة طويلة قبل أن يدخل القطار المحطة ويرسو جنب رصيفها. أنظر: أعرف الأرض والمحاصيل، وأعرف الناس، وأعرف البقرات والجواميس، حتى الحمير أعرفها، وأضحك.

وأدهش، فالأرض تغيرت بما فيها من كروم، والناس عليهم سيماء العزم والحرد، وآلات العزاقة، يا لها من آلات صخَّابة، تنفث من قلوبها الدخان، كأنّما ملّت الصمت؛ بقي يلف الريف دهورا، طردت طيور مالك الحزين البيض

النواصع، والغربان السود اختفت، والبهائم قلّت وما بقي منها فهو مهزول منفيٌّ عن عناية صاحبه. دهشت لذلك، وللبيوت المشيدة بالأسمنت المسلح، أراهم إذ يدخل بي القطار إلى قريتي ملونة عالية صلدة جهمة، والباقيات من الدور الريفية من اللبن تبدو بائسة متداعية.

أخذني الاغتراب في الدنيا سنين طوالاً بعيدا، والسفر دأبي والقطار قدري، والآن يدب على قضبانه كما كان دومًا في اتجاه قريتي. وإذا ما دخل بحثت عن دارها: من اللبن، لكنها في ذلك الزمان كانت وسيمة بما على واجهتها من بياض.

كنا نتردد على المدرسة في المدينة؛ يا للعيال من أولاد هذه الأيام. يتخفف البنات والصبيان من التأثم، ويتحادثون ويتضاحكون وحتى يتعابثون، لكنني كنت أجلس قبالتها أتأمل حسنها، فإذا ما لاحظتني هربت بعيني خارج نافذة القطار.

أبوها كان نحَّالاً مشهورا. وكان رجلاً نحيفًا وعابس الوجه. كلّمتُهُ . ممتلئا بمهابته .: إن أبي كلفني بحمل هدية من عسل لصاحب له في المدينة. قلت هذا للنحَّال، فقال لي

أن أمرّ بدارهم في بدرية الصبح، آخذ مطلوبي معي في القطار الذي يحمل التلاميذ للمدارس. بكرت، طرقت، وانفتح الباب عن دفء الدار وعتامتها ورائحتها، وكانت هي التي فتحت لي.

لفّنا الدفء والغبش وروائح الدار، غرقنا في عمق السحر. لم أكن أرى .من قلّة الضوء .سوى ورديّة وجهها ونعاس عينيها. وفرجت بين شفتيها، وكفاها سعت حتى حطّتا على كفي فصارتا في دفء، في لحظات قصار، لكنها طوال كالعمر.. عمر ضيَّعتُه في الغربة، وحينما رجعت وجدت الأشياء تغيرت، ودارهم زالت وشبّ مكانها بيت بالأسمنت المسلح، ملون عال صلد جهم، وهو معمور بناس آخرين.

وقفت على الرصيف في ثلوجة الصبح والضباب، وعسلي بين يدي. فإذا بها آتية، تمرّ بي، وعلى وجهها كل حلمنا، لم ينتقص برد الصبح من دفئه، جلست على الأريكة، انحنت على كتاب دينها تقرأ ورد الصبح، والصليب الذهبي متدل بما انحنت.. ذلك كان، والآن..؟!

القطار خلاَّني على الرصيف ومضى، والرصيف مزدحم بالخلق، لكنه موحش منها، أفتّش عنها والخراب يملأ الفراغات. يا ليتني كنت كلمتها، يا ليتها كانت كلمتني. آه يا ربي. خلاص. انقضى الوقت بمخاوفه والنكوص.

في آخر سفرة إلى قريتي ثقل قلبي حتى أوشك أن يكون فيه حزن.

أخذت القطار عائدًا. القطار قدري، والترحّل فيه دأبي. رجع أصداء رطم العجلات للقضبان حزينا، هل أبكي؟ ما عاد هذا يليق بي، لقد كبرت.

٢٤/ ١٢/ ١٩٨٨

صباح عيد

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا إله إلاّ الله، والحمد لله، الإسلام شرعته العلن، وطقوسه الحفل، والجهـر بـالقراءة، والتكبير، والتأمين وراء الإمام بأعلى الأصوات. خلّوا الآذان يجلجل من على كل المآذن، والخطب من على كل المنـابر، تقتحم كل عزلة، تقضّ مضاجع النائمين، تفتضّ كل انفـراد، حيث الشيطان رفيق المنفردين، والوساوس حليفة الأجسـاد المحبوسة في الغرف، المبلولة بالعرق. اخرجوا. اغتسـلوا. واتخذوا أحسن جلابيبكم، وتعمَّموا، واقصدوا موائل الجمـع، ومواطن الاجتماع، حيث تقام الفرائض والفرح بهـا حيـث تؤدى جماعة.

وفي المواسم أطبخ لحمًا يا سيدي..! عكّـر دسـوت الطبيخ بالمرق المزين بعيون الدسم. وسِّع على عيالك، وعلى جارك الفقير. واستقبل ضيفك، وأنفق من مالك الحلال. اشتر فاكهة وحلوى وتمرا، وفَرِّقه في الناس، واعط عن سعة يـد. وهو إذ يبذر النُّقل طوّح يديه يمينا وشمالا من مرقده. رمقته زوجته دهشة، ثم خفضت عينيها حذرة، لكن الرجل تنبَّه لها، عرف موقفها، وعيناها عليه. حدجها ببصره، وهتف أن:

. يا امرأة..!

وقفت عمًّا في يدها، سمعه منصتة، مطيعة مجاوبة.

وهو قال لها:

. يا امرأة.. غطّني..!

وهي تدثّره باللّحاف ثرثر معها عن رمضان: اليوم آخر الصيام، وبعد نحن في شوال، شهر العيد، الغُرَّة منه عيد الفطر، كل سنة وأنت طيبة. شريت كل شيء لك يجعل العيد وعلى العيال سعيدا: خلقاناً وطعاماً، وعمّرت جيوبهم بالمضاييع..! ألا يجمل بك أن تحمدي الله على إحسانه؟ سألها وأجابته قائلة له:

. ستر الله عليك كما أنت سترنا وعزّنا...!

قال لها:

. أحكمي الغطاء عليّ يا امرأتي، فإن العيد غدًا..!

وأول علامة لقدم علمتها قدمه على الندى المحتوم بإحكام ينام تحته التراب على الطريق لمسجد الجامع.

يمشي مختالا في جلبابه الكشميري، تحته قفاطين الشاهي والصداري، متحزّما بحزام الحرير وعلى أكتافه العباءة من الجوخ، وينصع جبينه تحت العمامة البيضاء،

وعيناه منكسرتان بالتقوى، وشفتاه مشغولتان بالتسابيح يرنِّمها سقوط حبات المسبحة واحدة على الأخرى، مُوَقِّعة على إيقاع عصاه يضرب بها الأرض ضربًا رفيقًا..

يقترب منه رجل عليه جلباب نظيف، وتقية مغسولة، وتحتها جبين مقطّ ب، والعصـ ا تخـ بط الأرض خبطـ ات غضاب. بعد أن تبادلا صباح الخير، وكل عام وأنت طيـ ب، قال الرجل ذو التقية للشيخ المعمّم:

إني بكّرت بالسروح إلى الحقول، فوجـ دت الترعـ ة جافة كقعر الكفّ..!

ردّ عليه ذو العمامة:

. أتسرح مُبكرا إلى الحقول يوم العيد؟

قال له ذو التقية:

. نمت مشغولا بالزروع العطاش..!

غضب المعمّم وقال له:

. أيشغلك عن العيد عطش الزرع؟ وصبح الاحتفال! فأنَّى تؤفكون؟!

قال له الرجل ذو التقية:

. صدق الله العظيم.. أي نعم..!

ثم جلسا متجاورين على الحصير، في رواء المسجد، بين صفوف من مئات المصلين، يكبّران معهم ويحمدان، لكن في كل قلب ما يشغله..

الشيخ ذو العمامة مجذوب للترتيل العالي، يتمايل مغمض العينين، يعجبه صوته، وصوت الجمع بطانة تبدي غناءه، لكن ضربا من الانشغال وراء الإنشاد، وإهمال الشدّ على المقاطع، ونسيان وراء شرود البال، وحول العيون. يهزّ رأسه صخبًا وغضبًا، يزمجر بالكلمات حتى يوقظ الهمم ويسحب العزم في جذبات الرحمن، في الغناء العظيم، حتى صعد الخطيب المنبر.

انصرفا: المعمم وذو التقية، أولهما يشغله أنه مما حصّل موعظة نافعة من خطبة العيد؛ يا أسفا لانشغال الناس بالزرع العطشان وأخذه معهم في ذلك.

وهذا عطش الزرع يشغل ذا التقية يمضيان لا يتبادلات حديثًا حتى زارا المقبرة وآبا يسلمان على الناس بالعيد. وانتهيا إلى مضيفة الشيخ المعمم. أمر هذا الشيخ بأن تحمل له صينية حافلة بالكعك والبسكوت والغريبة والنقل من

أفضال الله على العبد في عيده. وقف منتصبًا تيّاها في ثيابه يلوّح بيديه، يقول للناس:

. أقبلوا على طعامكم يا ضيوفي في يوم عيدنا!

الناس يقبلون مترددين في الأكل وزاهدين في الحديث؛ فإنهم مشغولون عن العيد بجفاف الترعة.

حتى إذا صاح واحد يجري في الطريق، يصل صياحه لهم من شبابيك المضيفة:

. المياه ملأت الترعة..!

أفرغت الكلمة المضيفة من الزوار، وبعد زياط المضيف وضيوفه بقي صمته وبقايا الأكل على الصينية، جلس على المصطبة يعايش السكون، حتى إذا أطلَّت امرأته من باب المضيفة، خلع عمامته وناولها لامرأته، ثم خلع العباءة والجلباب وقال وصوته محتبس:

. أهكذا يكون الأمر في صباح عيد؟!

١٣/ ٤/ ٨٩

الكرم الريفي

هما ولدا عمي: محمد ومحمود. نقعد في مصر، لا نترك أسلاك الهاتف تبرد من حرارة عواطفنا إلا واتصلنا ببعضنا مرة أخرى: كيف الحال؟ والعيال؟ لم أرك من زمان؟ وأضع المسماع وأشرد نواحي بلدنا وسنوات اليفاعة. كان أبوهما يعزّني معزَّة ابنه الكبير، وإذ يراني مقبلا يقوم مسلّمًا مرحبا مهللاً بصوت يفيض فرحة، ويجتمع الناس عليّ وعليه، وأجلس إليهم، ويجلس إلينا محمد ومحمود، ونحن فرحانون باجتماع الأهل والأحباب في الباحة المؤطرة بالدور. يا لنعمة الانسجام التام الذي يشمل الريف وناسه..! يتنادون من على الأبواب، يضحكون برفق، ويتشاتمون في المزاح برفق، ويخرجون بطعامهم إلى أمام دورهم، ويتعازمون بحرارة، ويثقلون بالعزم على الضيف الغريب، ويسرف هذا في التأبي، فيحزنون.

لقد مات عمي، وجرحني بموته، وباع ولداه منزلهما وحزنت لذلك، والجرح البالغ بقي رابطي بالحتَّة قدام باب بيته. أرامق البيت وسكانه الغُرب، وأمشي وفي قلبي يبقى

المطرح والدور المجاورة، وولداه اللذان يعملان في القاهرة، لا أترك أسلاك الهاتف تبرد من لهفتي عليهما.

نلتقي في البلدان كل آن، نفرح باللقاء، ونتعانق، ونضحك من كل قلوبنا، ونرتدي الملابس الريفية، ونتيه بأزيائنا وباحتفال الناس بنا. ياسلام على الصلة التي تبقى تصلك بالأرض، تصلك بأصولك الريفية لا تنقطع، نروح هناك نغتسل من الملالة القاهرية، من كرّ الأيام وشبه الأيام ببعضها. ثم نعود ريانين بالريف، شبعانين، اغتذت أرواحنا، فنفيض في ثرثرة على أسلاك الهاتف، ثم لا نلبث إلا أن نشتاق إلى السفر مرة أخرى.

لماذا يسافر كل واحد منا بنفسه، لماذا يسافر كلٌّ منفردا؟ لماذا لا نسافر جمعًا؟ تقابلنا في باب الحديد، وقد أخذنا العزم على بدء المتعة بزيارة البلد في قلب القاهرة نفسها، تقابلنا، وضحكت لما رأيتهما يلبسان الجلابيب البلدية: أتتعجلان بارتداء الزي؟ ضحكا من كلامي وانتفخا وطالت قامتاهما تيهًا، وجلسنا في القطار نثرثر على متعتنا المرتقبة: نجلس في الباحة، ويلتمّ علينا الناس، فلان وفلان وفلان، كل مشوق ليسمع منك وكل مشوق ليحكي لك، وكل مصرٌّ على

أن يقربك، يحلفون عليك أن تأكل عندهم ويصـ ـرّون عـلـ ـى حلفانهم، والواحد يتأبّى وكلما اشتدت العزيمة اشتد الواحد في تأبّيه، حتى ينكف الواحد منهم، ينكسـ ـر بمـ ـا لـ ـم تسـ تجب عزيمته.

رويدا رويدا يفتر حديثنا، ويبدأ الواحد منـ ـا يتقلّ ـق، وتزاحم الكآبة مشاعر الفرح، نضحك هنا وهنـ ـاك، نغالـ ـب كآبتنا، لكن لا سبيل، فإن في القلب ثقلا من ناحية الحقيقة. إن الواحد ضيف متعلق برغائب مضيفه، لو زفر تركت أنفاسـ ـه بصمات على زجاج روحنا المصقول فيتغبّش. لكننا نتـ ـذكر الحمية والحماسة، نشدّ الذكريات على إعتام أرواحنا، حتـ ـى وصلنا إلى طنطا.

نزلنا إلى المدينة، أهي بالغة الروعة أم نحن نضيف عليها من فرحنا. هذا غاية نزهتنا. زيارة طنطا أيام كنا فـ ـي البلد، ومولد السيد البدوي والحلـ ـوى وغـ ـداء مـ ـن الفـ ـول والطعمية، فإذا محمد الأخ الكبير يقول:

. لنأكل لقمة هنا قبل أن نذهب إلى البلد..!

شدهت لكلامه، واستعجبت! ثم استيقظ فيّ نوع مـ ـن المحاذير، فسألته مكتئبًا لرده المتوقَّع، قلت له.

. لماذا نأكل؟ وهم يقدّمون لنا في البلد الطعام، ويجزلونه، ويعزمون علينا أثقل العزائم؟

فتكلم محمد ومحمود يبتسم موافقا:

. نحن نأكل هنا؛ لا ننزل على الناس بجوعنا، إنهم يعزمون علينا، ولا نجد نحن مناصًا من التأبي، ويعزمون علينا بطريقة تضخّم نيَّة التأبي، فحتى إذا بلغ تأبّينا ذراه حزن الرجل وانصرف!

استيقظت في نفسي غصّة قديمة، غصة غالبتها لتبقى سكتى على الريف موطّاة.

قلت له:

. ماذا لو أكلنا؟

قال ابن عمي:

. العزومة والتأبي، فأين المخرج؟

١٤/ ٤/ ١٩٨٩

حنان الأرض

تلك هي جملة ثرثرة العجوز عمتي مع بائع جوّاب. رأته من مجلسها قدام بابها يمشي يحمل قفصين مربد وطين، يمر الرباط عبر كتفه فيحملهما: واحدا على صدره والآخر على ظهره، والقفصان مليئان ببطات يصل صياؤها كبطانة لنداء الرجل على بضاعته، والرجل حزين يتبدى ذلك في خطوط ظهره، ويرن في شدوه بحسن بطّاته.

شغلها الرجل عما في رأسها وحيرتها: أتُبقي على القراريط التي تعاقدت عليها؟ أم تفسخ العقد وبالمال تبني دارا جديدة؟

زعقت عمتي عليه وجاء به الزعيق، قعد قدامها وبينهما القفصان يُخْرِجُ منهما بطات شاهدا على جمال رأيه في البط العجيب. راقها بَطُّه فانتقت خمس فرائد ثم بدأت المساومة على الصفقة. ثم عَنفت المساومة حتى أوشك الرجل أن يغضب ويمشي وأوشكت هي أن تغضب وتترك له بطاتة. لكن الفصال ظاهِره الغضب وباطنُهُ التراضي، فمالت ومال حتى استقرا على الثمن المعلوم ودفعت له، والبط صار بطها والمال صار حلاله.

وبعدما استغرقت المساومة الشديدة شد وقهما للك لام نظر البائع إلى عمتي فرأى في عينيها حنانا لـ ه، وعمتـ ي وجدت في عيني الرجل أن طراوة نسمة العصرية أمام بابها تريحه، فعزمت عليه بالشاي. قال: " نعم.. يا سلام يا ستي.. طيب.. نشرب عندك الشاي! " على إيقاع الرشفات المتباعدة، وطعمها السكري سأل الرجل عمتي: " يا خال ة.. لم اذا لا تبنين دارا جديدة؟ يا خالة دار حسنة!" قالت له وقد شد ردت من الكلام إلى الكلام الآخر، وتـ ذكرت، واكتس ى وجهه ا بسحب من الهم: " آه يا ولدي. كم اشتقت لدار جديدة، لكنـ ا اشترينا سبعة قراريط، فوضعنا المال في الأرض يا خسارة. وأفكر أن أرجع، أفسخ العقد وأستردّ مالي، وابتني بهـ ا دارا جديدة..! آه يا ولدي كم أشتاق لذلك..! " لكن بائع البط فزع وصرخ، ونهنه، وانحدرت الدموع من عينيه وبكى بحرق ة. قال عبر شهقاته: " يا خالة.. لا تلغي عق دا اش تريت بـ ه أرضًا.. لا ترجعي في كلمتك.. ضمي إليك الأرض قيراط ا بعد قيراط.. آه يا خالة.. آه من حنان الأرض.. إنهـ ا أكثـ ر حنانًا من الأم والأب.. يا سلام.. افرحي باتساع أرضك شبرا بعد شبر.. إنك بذلك تفسحين نصيبك من الـ دنيا.. وتنـ الين رحمة رب السموات..! "

شدهت عمتي من شدة حرقة الرجل حتى ما تبللها إلا الدموع. قالت له: " آه يا ولدي.. ثم ماذا؟! " قال لها وخطان من الدموع على خديه: " اسمعي خبري يا خالـ ـه.. بـ ـالحق أقوله.. والله شهيد: إنا ورثنا من أبينا . أنا وأخي . أرضـً ـا ودارًا، ثم تراضيت أنا وهو . قصرًا للشر . على أن أترك له نصيبي من الأرض والدار مقابل مال.. آه.. ثم إنـ ـي لـ ـم أشتر أرضا بمالي لكني بنيت دارا جديدة فسيحة الحجـ ـرات، دارا بلا حقل ولا بهيمة. فاستيقظت من السـ ـكرة علـ ـى دار مغلقة على وحدتي.. آه.. وأطوف ببطاتي وفراريجـ ـي ثـ ـم أرجع إلى بيت تصرّ فيه الجنادب وأسـ ـمع صـ ـريرها فـ ـي صمته الأسيف. أغلق عليّ بابي، وأنا أفكر في الأض.. هي كانت أكثر حنانا عليّ من أمي وأبي.. آه..! " العمـ ـة رأتـ ـه يمضي عنها بقفصيه. تأملت خطـ ـوط ظهـ ـره.. حزينـ ـة.. وتأملت أثر حديثه في قلبها، فوجدته حزينا.. نعـ ـم.. هكـ ـذا يثيب الله بالموعظة الحسنة بقدر ما أكرم الواحد ضيفه.

وهكذا هي جملة ثرثرة عمتي مع بائع جوابّ.

١٩٨٩

عن المقام

كلما مررت ببيوت " الإنشا " حزنت، وكذلك المسجد الذي ابتنوه لصلواتهم، وتذكرت سالم السوداني. كان حسن الوجه حسن السمت نظيف الثوب، نظيف العبارة خفيض الصوت، لكن ياه.. يا الله حين يكون مع رفقاء الجوزة، يسرف، ويشرب البوظة، يفلت خلقه من حسن السيطرة، تبيض عيناه وأسنانه، يلقي بتقيته على الأرض ويصرخ، يهرف بأشنع الصفات. لكنني لم أره حال خروجه، بقيت صورته في ذاكرتي محفوظة في أحسن إطار. يذكره أهل قريتي ويضحكون على أحواله، فقد كان طوافا بالبلد ينشد رفقته في الليالي، وفي الصبح تتحرك عن سهرته حزمة من الأخبار وملء الأفواه من شتائمه. من الذي أتى به ليسكن "الإنشا"؟ أهو لعمله في معمل الألبان التابع لتفتيش وزارة الزراعة مُنح مسكنا في العزبة؟ أم أنه جاء خصيصًا لكي يموت الناس عليه ضحكا، ينضاف لضحكهم على خلق "الإنشا"؟ بيوتها مقببة سقوفها وهي صغار وقميئة، يحتملها الساكنون وسخريات أهل قريتنا بهم، يلوذون بدورهم الواقعة مكببة تلو الترعة الكائنة في الجهة القبلية من بلدنا

وينصرفون لأمور معاشهم، إنهم أنفار جمعتهم ضرورة العمل، بلا قرابة ولا عصبة ولكن ودّ الجيرة، يحل ويرحل القليل ويبقى الأكثرون أبدًا. وقد كان سالم السوداني رجلاً صاحب ذوق في السُّمر من النساء، لقط واحدة من هنا وتلك من هناك، وأخرى من بلدنا ملها فطلقها كما طلق الأخريات وبقيت هذه عجوزًا تدخّن بشراهة وتسعل، أمر على بيوت "الإنشا" في سكتي إلى غيطي بحذاء الترعة، والمسجد الذي ابتنوه لصلواتهم من الأسمنت المسلح على شاطئهم أراه. جامع كبير معلق على سقفه مكبر صوت وهذا نفيره. وجنب محل الصلاة مضخة الماء تجمّع البنات حلاوة السكر. حوشيات من " الإنشا " بهيات في الجلابيب الملونة. أحوش نظري عنهن والغنج الرائق يجلجل في الضحكات، ترن في الجدران الصلدة والسقوف. كل البيوت بنيت وزوّقوها بالبياض، وفي واحد منها أرملة سالم السوداني.

كان ذلك منذ زمن مَرّ بما كان فيه. كانت قريتنا تطوف بها أعداد من الشحاذين، يطلون على أهل الدار من بابهم المفتوح في الدور الريفية، أو يخبطون الباب الخشبي فتخرج لهم الأرغفة أو حفانٌ من الدقيق أو الحبوب. كان ذلك

منذ زمن فات، والبيوت ارتفعت دورين أو ثلاثة ولها أبواب حديدية، وتكسل المرأة عن النزول لتلبية سائل.. وماذا تعطيه؟ إن زراعة العنب كنست الدار من الأشياء، تبقّى لهم الفلوس يشترون الأرغفة من فرن القرية. هجر الشحاذون القرية والمجاذيب وذوو الأحوال، وفي المساء بقي المرناة يحيي الليالي.

وعين "الإنشا" على قريتنا: الجامع ومقام سيدي سليم. جامعهم يلحق يرد بالآذان بالصوت المكبر، وآهلو كان عندهم شيخ لابتنوا له مقامًا ورفعوا العمدان وأرسوا الطوبات بالفن. فتحوا عزبتهم للشحاذين وللمجاذيب وذوي الأحوال، وأقاموا في الليل الأذكار، في الحتة التي هي ما بين مضخة الماء والمسجد، ما بين ضحكات البنات المجلجلة وجلجلة آمين وراء الإمام. وأولاد بلدنا يقصدونهم، يقفون على شاطئنا من الترعة ويتفرجون ويتندرون على هز القدود وسوء المديح، ويضحكون على زغاريد نسائهم ثم ينصرفون والذكر لا زال في الأوج.

إن سالم السوداني كان تزوّج في آخر أيامه بنتًا لم تُعلّم الأنوثة عليها علامة، بعد طفلة، أكرمها وبرّ بها فنمت

عنده، ثم مات عنها وهي صغيرة، صرخت أقبل أهل "الإنشا" مفزوعين وحزنوا على الرجل ودفنوه عندهم، وبقيت ذكراه وتوقيرهم للأرملة. وكبرت هذه وصارت امرأة سوية في وجهها حسن وفي جسمها من تفاصيل سبحان الذي صور. حتى أهلَّ عليها رجل له قدر من السن والعقل والمهابة بين أهل " الإنشا " قال لها إنه بالأمس جاءني سالم السوداني في منامي تحت بيارق وحوله زحام، سألته أين يقصد؟ قال لي هنا.. وهنا مقامي. وأشار على الحتة ما بين المسجد والمضخة..

وفتحت الأرملة بابها للمجاذيب وذوي الأحوال، أكرمتهم وأقامت لهم الأذكار، يأتي أولاد بلدنا ينظرون وينصرفون ضاحكين، وهم يقرءون الفواتيح على روح المرحوم سالم السوداني. حتى نزل " الإنشا " شاب، في الناس نادرة، زينته، وكحل عينيه، والمسك يفوح من ثيابه. عليه جلباب أبيض سابغ من رقائق القطن وقدماه نظيفتان في " الشاروخ " السعودي، وعلى رأسه شال هفهاف يستر وجهه عن الناظرين. فإذا أسفر رحبت به الأرملة وقالت له: تعال يا عمي. وجلس على حصير مصنوع من لدائن ملونة،

وتحدث وهي جالسة بين يديه، وعظها حتى عضّتها اللوعة وفاضت الدموع من عينيها ونهنهت العبرات. انكفأت عليه، دفنت وجهها في حجره متشبثة باليدين في الوركين حتى تبلل جلباب الشاب من دموع الأرملة، وهو يخفف اللوعة عنها بالتربيت على ظهرها، ويبكي يتقطر مماؤه على شعر الملتاعة.

اجتمع أهل " الإنشا " على الرجل عند الأرملة، وبالليل أقاموا ذكرا في عين الحتة، وفي الآخر ودّعوه على باب بيتها. وهو يبيت عندها، وفي الصباح قام مبكرا قصد مكان الذكر، نصب فيه طوبات، وأقام عليه راية حمراء رفاعية، وكتب على لوح خشبي: هذا مقام سيدي سالم السوداني، وصاح في الناس سنبدأ الآن في التبرع، فإذا اكتمل المال كان المقام.

شاع الخبر وزيد عليه وتقول المتقولون. وكل آن يمر بعض من أهل قريتي على نصب سالم السوداني. ضحكوا وفاض ضحكهم حتى وصل إلى واحد من مباحث المركز، شخر ونطر وقال: والله العظيم إن الأمور زين، يبيت النطع في بيت الأرملة ويقيم طوبات عليها راية ويجمع

التبرعات! وهو من أي البلاد جاء؟ أفّاق يدور بشرّه! وثاني يوم أرسل العربات نصف النقل الزرقاء وكبسوا على "الإنشا" . وحينما ظفروا بالشاب ضربوه أبشع ضرب وصحبوه ملوثا بالوحل والدم والدموع. وأزال النصب وكسر اللوح ومزق الراية بيديه، ثم غابوا به وراء الأفق.

كلما مررت ببيوت " الإنشا " حزنت، والمسجد الذي ابتنوه لصلواتهم بالأسمنت المسلح. ها.. انقضى سامرهم، وما كان يضرُّ لو بني مقام لسالم السوداني؟ لكانت الأحوال أصلح ربما. ومن الذي ينبئني أن حال سيدي سليم .شيخ بلدنا وله مقام .خير من حال الأسود؟ ربما كان يفرط في الجوزة وقرعات البوظة إفراطًا شديدًا، لكن الشرطة لم يكونوا على أيامه أقوياء وقليلي الحياء!

١٩٩٠

الأعرج

مشى يطلع في زحام الحارات، وهو يكاد يضحك من بلاهة التساؤل في أعين الناس، يريد أن يخطب فيهم: " ساقي ليست معطوبة، ولا طالني المرض، إنمـ ـا أنـ ـا حـ ـذّاء..! " ويضحك دونما أن تتحرك بضحكه الشـ ـفتان، يظـ ـل يـ ـرنّ الضحك في جوفه حتى تتلون به الوجنتان. ظل يمشي يطلـ ـع في زحام الحارات حتى خلص إلى ميدان العتبة، إلى محطة السيارات الحوافل.

نظر فرأى الزحام، يراه كل يوم لكن اليوم الخميس، استكثر على نفسه الحشر وثقل الخلق على جرحـ ـه القليـ ـل، فأطلق لنفسه العنان. إنه سيتمشى، من الذي يستعجل عودتـ ـه للبيت وغدا يوم راحته؟! ضحك. ثم واصل سيره ضاحكا من الناس الذين يرمقونه.

شارع ٢٦ يوليو ظل يأخذ به أخذًا شديدا حتى النهر وقد ضاقت منه الأنفاس، لكنه راق جنب بحر النيل، فرح به وركن هناك هونًا ما. ظل هناك حتى غـ ـاب نـ ـور النهـ ـار والتمعت في جوف المساء أضواء الشوارع. إذن قام مهرجان النور، اختفى القبح وصحا الحلم وبانت البنت من على البعد

مثل قمر، وجهها معمول والخاطر رائق، وأمها معها. مشى بحذائهما يوفق خطوه مع خطوهما. ضحك لهما، فأقرأته الأم ألف مساء. ابرنشق، ظل يتكلم كثيرا ويتق افز عل ى س اقه القصيرة ويطلع. وماذا في ذلك؟ إن جيبه ملآن بما قبض من أجر الجمعة، والنقود تبعث الحول في جسمه. أدركوا موقف الحوافل وأن لكل منهما أن يركب في اتجاه ه. ق ال لهم ا ملهوفًا: هل تأتيان يوم الخميس؟ نعم! مشى وهو مس رور بموعده. بكّر من صبحه إلى الورشة. يا سلام على الش غل! إنه مزاج الرائقين، يسوي الجلدة من أطرافها بسكين مرهف ة الحد، ثم يدق الأطراف ويغني، ويقرّع الزميل ال ذي أخ ذ الشاكوش ويضحك، ثم إذا به يقترب منه الأسطى الكبير. جرّ كرسيه وجلس إلى جنبه وسأل عن الحال، الول د ارتج ف خفيفًا ثم رويدا رويدا استعاد ثباته ثم غنى مجاوبًا أن الح ال كالورد مزروع في القصاري. الأسطى الكبير ابتسم وق ام، الولد استعجب أن الأسطى لم يشر إلى بنته بكلمة وهو كذلك لم يسأل عنها. آه. هكذا قطّرت قطرة سوداء عل ى علاقت ه بالأسطى الكبير وهو الذي جلبه من بيته وعلمه الصنعة، ث م إن السنّة أن يتزوج صبي الصنعة من ابنة الأسطى. البن ت

حلوة لكن ليست مثل التي ولدت من أنوار المساء.. مساء الخميس.. آه لو كبرت النقطة حتى سوّدت ما بينهما، بينه وبين الأسطى. دقّ بالشاكوش على الجلد، وغناؤه أصبح حزينًا.

ثم إنه كان يوم الخميس، جاء المعلم بالأجور فوزّعت عليهم، قبض النقود ومشى يطلع في الحارات المزدحمة، لا يبالي بنظرات الناس، ولا يبالي بالسيارات الحوافل، ترك شارع ٢٦ يوليو يأخذه إلى النهر، وقف يرقب الدنيا حتى لمعت أضواء الشوارع، إذ ذاك جاءت البنت وفي صحبتها أمها، مشى يحكي ويحكي، والبنت في وجهها كل جمال المساء، تتلعب في عينيها أعجب التصاوير، ينظر فيهما ويستعجب، يستخفه ذلك للحكي فيحكي، والمرأة راضية مستقرة، تترك للشابين كيف يصوغان عواطفهما، حتى سألته البنت: " قل لي يا أخي ماذا بساقك، لماذا تعرج؟ " ضحك الفتى وأغرق في الضحك، قال لها: "ليس بساقي علة ولا مرض، إنما هي صنعتنا يا بنتي! " فقالت له البنت: " وماذا في صناعتكم، صناعة الحذائين؟! " فقال لها الولد: " إننا نستغني عن السندان، وندق على سيقاننا، رُكبنا موطأة للدق،

نظل ندق عمرنا حتى تقصر السد اق اليمذ ى ع ن السد اق اليسرى، هكذا نعرج يا بنتي. كل الحذائين هكذا! "

نظر إليها فإذا وجهها مصفرّ عليه دهشة تكاد تصد ل إلى الرعب.. سقط الضحك من فمه، وتأمله ا، وعل ى ذات فجأة جاءت الحافلة فقفزت البنت راكبة فيها، ولحقت بها أمها دون أن يتركا له موعدًا.بقي واقفًا جامدًا، وبقيت لـ ـه نظ ـرة الأم مشفقة وراثية.. وانطلقت بهم الحافلة بعيدا..

٥/ ٤/ ١٩٩٠

مذاكرة

وقفت المدرّسة قدام البنات: بيدها المؤشر وبالأخرى قطعة من الطباشير. وإذ بدأت ابتدرت بنات فرقتها، أن: "... يا بناتي انتبهن لكلماتي، إنها من الحياة وإلى الحياة ترجع..!" عيناها محلقتان بعيدا. والبنتان اللتان تجلسان على المقعـ دين في أول الصف تنظران للمدرسة، تريدان أن تصيدا نظراتها، أن تحتوشاها، وتحوزا الاهتمام، ومـ ن غـ د تبـ دآن الكَـ رّة الأخرى.

هذا الصبح خرجتا من بيتهما، تقابلتـ ا واصـ طحبتا كعادتهما، عبرتا الجسر إلى الجزيـ رة، هنـ اك مدرسـ تهما، تخفان السير على كورنيش النيل في جو مشمس بارد، لكنـ ه طلق ورائق، فهل يعنّ لهما أن تراجعا موادهما..؟ أخرجتـ ا الكتاب، إنه كتابها..! تواطأتا وبدأتا.

استفتحت واحدتهما الدرس وقرأت: ".. وإذا يتدفق..! " وهما ماشيتان تترقصان على نغمة مرحة خفيفة في غلائل الصبح، والأخرى تدعك بطنها بيدها اليسرى بينـ ا يمناهـ ا مشبوكة في شمال صاحبتها، وتكمل لها قراءتها: ".. وهناك ترقص.. الحيوانات المنوية.. ترقص وترقص.. تشبك تاتا..

تشيك تاتا..! " وتترقص البنتان على جمل مـ ن الموسـ يقى الشرسة، فالشارع خال يترك المجال لانطلاقهما بلا حـ دود، فإذا الواحدة قالت للأخرى من البنتين: " هسّ..! " ورفعـ ت كفيها، ثم استدارت تمشي متعاجبة تتثنـ ى، حركـ ـة الكتفـ ين تساوق حركة الردفين، والرأسان ميزان، وكلماتها نغـ م: ".. طم... طم... والبويضة تتزل فـ ي جـ ـلال.. تتمشـ ى فـ ي الجوف.. طم... طم...! "

لحقت الثانية بصاحبتها، تصيح: " إنها لحقـ ت بهـ ـا جيوش من الحيوان.. " تؤطرها مشية صـ ـاحبتها بـ ـالرقص حولها، فيختلط التثني العظـ يم بفوضـ ى التخلّـ ـع المسـ تثار وتحكي: " كل مخلوق دقيق يدفع برأسه الإبريـ ـة يحـ ـاول أن يلمس البويضة، يبحث فيها عن ثقب للاختراق..! " ثم شبكت يسراها في يمين صاحبتها، يقترب الرأسان أو يبتعدان فـ ي إيقاع الذكر أو دورة الزار على مقـ ـاطع مـ ن الموسـ يقيين الشرقيين القدامى.. انتشيتا وبلغت بهما النشوة حدًا فاق كـ ـل حد.

صحا الشارع ودبت الأقدام والتفتـ ـت الـ ـرءوس أو أطلت من النوافذ. وإذن ظهر الآن فريق من أولاد المدرسـ ـة

المجاورة، رأوا نشوة البنتين فانتشوا بالعدوان، خفوا للّحاق، اقتربوا، وسخن أنفاسهم يلفح الرقبتين وجوانب الصدغين وعيونهم تخترق.

ضاع اللحن من البنتين، وضاعت الرقصات والتطوح على اللحن الشرقي القديم. أسرعتا فرارا. البنت أسرّت لصاحبتها تريد أن تؤثرها بكلامها: " إن الخلية الجنسية تسمح لواحد بالاختراق، بذلك تتحد ويكتمل معناها، وتترك الباقين للفناء، للفناء، الحيوانات المنوية..! "

وهي تقول رشقت سبابتها في الهواء. قالت لها صاحبتها همسًا: " إنها تصبح جليلة..! " ورفقت ببطنها مسحًا ولمسًا. لهثت أنفاس العيال بما غمض عليهم الهمس واليد تجري على البطن. يريدون أن ينزعوا الكتاب، لكن البنتين ضمتاه باليدين إلى الصدر، احتضنتا الكتاب، واصلتا القراءة: ".. وفي الرحم فرش لها وسادة من الشعيرات الدموية، نتوء يحملها في الجوف..! "

ظهرت المدرسة، الأسوار ولمة البنات هناك. إذن تخلف جمع الأولاد، وقفوا وعيونهم على أعقاب البنتين والزعيق: " إنهما حافظتان.. حفيظتان هما.. هما هكذا..! "

والبنتان تقاربان المدرسة، ثقل قلباهما، صار همسهما كئيبً ا: "إذا لم يحصل الدفق؟ " أجابتها: " تم وت البويض ة دونم ا رقص حولها ولا احتفال..! " تسربتا من بين البنات والتسار خصيصة سيرهما الحثيث: " إذن تنحل وسادة من الشعيرات الدموية.."! " تصعدان السلم ومعهما اللهاث والنّصب: " ينزل الدم.. فراش الدم.. ينزل الدم..! " ومن التعب ردّت: " يتقطر الدم.. يتقسط.. يتقسط الدم..! " وهما على باب فصلهما قالت آخر كلمة في الدرس: " في عادة موقوتة..! " فإذا المدرّس ة واقفة عالية الهامة مشرقة، بيدها المؤشر وبالأخرى قطع ة من الطباشير. وإذا بدأت ابتدرت بنات فرقتها أن: " إنن ي أعلمكن الحياة.. يا بناتي تعلمن عني الحياة..! " ترى غص ة البنتين، اصفرار الوجهين، ذبول العينين، أهذا أوانها؟ وطَأت لهما من نفسها يسرًا. تأملتهما. وقفت البنتان والص مت ران قالت المدرسة تسألهما: " أليس كذلك..؟ " ردت البنت همسًا: " حاضر يا سيدتي..؟ " والبنت الأخرى " طيب يا س يدتي.. طيب..؟ "

٨/ ٤/ ٩٠

محكمة القطاط!

من شرفة بيتي العالي نظرت إلى قريتـ ـي، سـ ـقوف الدور،وأحطتُ بها حتى اسـ ـتقرت إلـ ـى التخـ ـوم تملـ ـؤني بالغموض. انصرفت نازلا. اليوم أول أيـ ـام عيـ ـد الفطـ ـر، قصدت بيت عمي، هو يكبرني بأعوام ثلاثة، تـ ـزول الكلفـ ـة ويبقى التوقير للسّن وللقرابة، وبدأنا الزيارات بالعمّـ ـة التـ ـي تعيش وحدها، مشينا نتقدم رفاقنا، وبدأنا ثرثرة هـ ـي حـ ـلاوة علاقتنا نستطعمها، ذراعانا مشبوكتان ورأسانا متقاربان. قال لي: " الواحد في مثل عمرينا لـ ـو تـ ـزوج يختـ ـار المـ ـرأة الوسط..! " قلت له: " أخ..! تلك تأتيك بفشلها، وفي صـ ـوتها النكد..! " سألني: " وإذن..! " قلت له: " إنها هي الصـ ـغيرة البيضاء، جُمّارة، قشدة لم تمتد إليها قبل إصبع..! " قـ ـال: " إنها تستبد بك..! " قلت له: " وأنا أناولها ما اسـ ـتطالت بـ ـه عليّ.. آه يا حلاوة.. وفي طبعي لين..! ".

وعند العمة تحلقنا حول صينية حافلة بأطايب العيـ ـد، وأنا لا زلت ملآنًا بنصري على عمي في دوارنـ ـا ووجهـ ـه عليه السحب: طفـ ـت أتأمـ ـل لوحـ ـات الحيطـ ـان والمرايـ ـا والكراسي الوثيرة والبساط. هتفت: " نحـ ـن نعـ ـيش أعوامًـ ـا

سعيدة و ١٩٩٠ هو أسعدها..! " وقال العم: " إن الفقر ترك الريف وراح إلى هناك يعسكر في حواري المدن...! " قلت: " إن بيوتنا بالأسمنت المسلح، منوّرة الردهات، لـ يس فيه ا أركان مظلمة تسكنها العفاريت..! " وبقي شغل الأسنان فـ ي الحباث وواحدات الكعك تترك سـ كّرها علـ ى الشـ وارب، والواحد لا يسمع لهم حسًّا هؤلاء البعض من الناس، سكتوا، قال عمي: " إن حكايات تدور في البلد عـ ن الجـ نّ، وولـ د مسكين في الناحية الأخرى ركبه عفريتان، والولد يكلم الناس بلسانه وبصوته، وتجيء عليه أوقات يهرف بما لا يعرفه عنه الناس بغير صوته وغير لسانه، وعجز الطب عن مداواتـ ـه، ذهبوا به لأهل العلم، أحرقوا أنف الولد حتى خرج العفريتان، وهما كانا طيبين، وأحدهما سكن في الدماغ والآخر سكن في القلب، وبعدما خرجا بكيا ورحلا إلى السعودية والولد لا زال حزينًا عليهما حنانًا لسكناهما جسده..! ".

وتكلم مهندس الزراعة، هو ابن عمي قال: " واثنـ ـان باطشان ركبا واحدًا. صحبوه حتى راهب في كنيسة " أبـ ـي جرج " وصف لهم ماءً لحموم الرجل وحجابًا، لـ م يخـ ـرج الاثنان الباطشان إلا بعد طول مجادلة..! " وقال ابن عمـ ـي

مهندس الكهرباء: " يتكلمون؟! " تكلم خريج الأزهر ومدرس في المدارس الثانوية: " إنهم كلموا نبي الله داود..! " رد عليه مهندس الكهرباء قال: " كلكم يظن نفسه داودَ يكلمه الجان..! " وقال ابن عمي المدرس: " خذوا مثلا إمام الجامع. ركبه عفريت كافر صرفه عن الصلاة وارتياد الجامع..! " وعمتي صموتة وأصبحت شاحبة، أخذت عدة الشاي ومشت إلى المطبخ.

قلت لهم: " ما هو الكافر في عرفكم؟ أهم القبط؟ وفيهم معاون الزراعة والنحَّال والتجار وكلهم كانوا على صلاح. وتاجر العنب الذي ينزل عند عمي شهورا من كل عام! " قال عمي: " لهذا أشهد أمام الله أنه رجل صالح..! " قلت لهم: " ليسوا كفارًا، ولا اليهود، عندهم ربّ يخشونه. وكل واحد في الدنيا يتبع ملة مثل ملتنا..! " قال الكهربائي " حتى الشيوعيون يلتزمون في الأخلاق بمبادئ صارمة..! " قلت لهم: " لماذا لا تأتي مثل هذه الحكايات من الناس الأذكياء اللامعين..! " قال المدرس: " اسمعوا أحكي لكم خبرًا عجيبًا..! إنه في قريتنا خفير دوار في البلاد وله ولع بالمكاتب وأعشاش السلطة. تعرف على العسكري الموكول

بباب مدير الأمن.. تباسط معه فحكى له عن يوم من أيام المدير؛ إذ جلس على العشاء ومعه امرأته وصبيّاه. أعطى الرجل لابنه الكبير نصيبه من اللحم، قفزت القطة خطفته. ضحك الأب وثنّى على ابنه مرة أخرى بقطعة نطّت القطة أطارتها من يده. " الولد في ثورته أمسك بفردة قبقابه وطيّرها خلف الحيوان الشرس، أصابها في عينها فصرخت: آه..! نطق بشري لا جدال.

اسمعوا، الخفير يحكي عن مدير الأمن أن الرجل بالرعب أوى إلى فراشه وفي حضنه ولداه وامرأته متعلقة به. الغرفة مغلقة محكمة الظلمة، إذا بها تضيء كأنما طلع فيها الفجر وامتلأت قططا. تموء كأنما اليوم يوم القيامة. والرجل وامرأته وولداه قائمون يكادون ينشدفون هلعًا. صاحت القطة الكبيرة وهي تصفق بيدها: " اسكتوا..! " ثم كلمت المدير بلسان عربي فصيح، " كيف تصيبون بنعالكم القطة في عينها وهي ملك كريم..؟ "

قال المدير: " إنها خطفت اللحم من يد الصبي مرة ومرة.. إنها ملك كريم.. لكنه قضاء وسبق! "

عفت القطة الكبيرة عنه وأخذت القطاط وانصرفت.

عمتي تفرغ الشاي في الأكواب فتخطئه ا. قصد دت مهندس الزراعة ليعمل عملها. شربنا في صمت. ثم استأذنا. كل عام وأنت طيبة يا عمتي. وانصرفنا. مشينا أنا وعم ي. ذراعانا متشابكتان ورأسانا لم يقتربا، ثم أهلّ علينا جماع ة من البنات مزينات بالترتر على الثي اب الجدي دة والعي ون والخدود. قاربت رأسي من رأس عمي. قلت: " أرأي ت..؟ " قال لي: " اسكت..! " وسكت وعاد رأسي لمكانه، ثم ترك ت عمي عند داره ومشيت على داري، صعدت إلى الدور الرابع أطل من شرفتي.. الوقت أصيل وشمس المغارب تبرق على السقوف وقريتي تملأني غموضًا.

١/ ٥/ ١٩٩٠

من نوادر ذي الأطمار

مشى الولد على آثار أبيه، والنهار لا زال متحجبًا خلف ستائر ليلية شفيفة، والأب يقصد دار صاحبه في الرحلة إلى سوق طنطا. الولد يسأل أباه: كيف تصحب هذا الرجل النتن مثل جيفة في مشوارك للسوق " قال الرجل لابنه: " إن هو إلا ابن أختي، فكيف أنكر قرابته؟ " قال الولد لأبيه: " إن أمه ليست بأختك.. " ردّ الأب: " إنها بنت عمي، هي مني بمنزلة الأخت! " قال الابن لأبيه: " إنه يلبس جلبابه ولا يسلمه للغسل أبدًا حتى يتمزق ويسقط من على جسده أطمارًا " رد الأب: " إنه بلاء خصّ الله به عبدا من عباده! ".

وهما في هذا انفتح الباب وخرج الرجل في أطماره، لكن وجهه يسبق النهار ويشرق في قلب عبشة الفجر، استأذن الخال وابن أخته من ابنهما ومشيا طالعين على سوق طنطا. طلعت الشمس عليهما وهما في وسط زحام الخلق من كل الأمم. كلّ تاجر، وكل حافظته ممتلئة، ونيته على الشراء أو على البيع حاضرة في شجار الفصال والمساومة.

الرجل ذو الأطمار يضحك، يأخذ دوره في العراك على المكسب ويضحك حتى إذا نزل به رجل يلومه على بيع

له في جاموسة عزيز لبنها. قال له الرجل ذو الأطمار: " إني كنت قلت لك لا تبع رضيعها، إنها لا تجود بلبنها إلا عل ى فصيلها! " قال له الرجل " نعم . أي نعم. أنت قلت لي ذلك وأنا بعت فصيلها، وأنا المخطئ! " وخرجا من السد وق: ذو الأطمار وخاله، لم يصبهما حظ الشراء.

فإذا بالخال يصرخ ويداه تتحسسان جيبه ه، صد رخ ملتاعًا: " إنني فقدت حافظة نق ودي آه ي ا ع الم..! آه ي ا مالي..! " فإذا بذي الأطمار يفزع على فزعة خاله ويقول له: " على مهلك يا خالي، اصبر يا خالي إن الله مع الصابرين! " ثم بدأ يرفع صوته صائحا " يا ناس يا خل ق الله.. ي ا م ن تعلمون بحالي.. ويا من لا تعلمون به.. إن حافظ ة نقودن ا ضاعت، الآن هنا.. ردوها عليّ يا خلق الله..! " ف إذا م ا انتهى من كلمته طارت حافظة نقود خاله في الهواء، تُحَلِّ قُ ثم تقع على الأرض تحت أقدامهما والخال يكاد يفقد وعيه من فرط دهشته.

قال الرجل لابن أخته ذي الأطمار: " قل لي يا اب ن أختي، ما سرّك وما علاقتك وما هي الكرامة التي سد خرتها

لاسترداد حافظة نقودي؟ " قال ذو الأطمار لخاله: إن لـ ذلك حكاية عجيبة أحكيها لك في طريق عودتنا إلى بلدنا! "

ذلك أنه مرة كان في سوق طنطا مثل عادته كل يوم اثنين، إذ باع جملاً وقبض ثمنه ألفًا، صرّ النقود في منديلـ ـه وخبأه في طيات هدومه، وخرج من السـ ـوق، لكنـ ـه يحـ ـسّ بعيون تبرق تتبعه ولا تخطئه من بين عيون زحام الخلـ ـق، إنها عيون السرّاق تحوطه، يميل في طريقه فيميلون معـ ـه، يعتدل على السكة يعتدلون معه، قال آه يـ ـا أولاد.. سيضـ ـيع مني ثمن الجمل.

مال على رجل يبيع شطائر الجبن واللحم في عـ ـيش أبيض طويل ملفوف، قال ذو الأطمار للبـ ـائع: " يـ ـا عمـ ـي السارق في أعقابي، ومعي ألف، هي في ذمتك حتى آتيك من غد..! " قال الرجل: " إنني إن مت، مت وفي ذمتي لك نقود أتعذب بها عند الله..! " قال ذو الأطمـ ـار للرجـ ـل البـ ـائع: " سترك الله.. فقط اعطني يا سيدي رغيفًا، وشقه لي بسكينك، وتوارَ حتى لا يراك الناس وأنت تضع الألـ ـف فـ ـي قلـ ـب الرغيف، ولفه لي في ورقة واعطه لي..! ".

ثم مشيت والرجل السارق يده تتحسسني، تجسدني، تقلب فيّ وتبحث في هدمي حتى أنه خلع تقيتي ونظر فيها، ولما لم يجد فيها شيئا وضعها على رأسي، وركبت القطار وهو ورائي، ووصلت إلى قريتي والرجل لا يفلتني حتى شارفت داري. قلت للرجل السارق: " هذه داري هل تتفضل معنا؟ " فإذا بالرجل اللص يمسك بيدي ويقول لي: الله يكرمك.. ويستر عرضك.. أنا اشتريتك من زملائي بمائتين حتى تخلص لي سرقتك، وأنا أستعوض الله في نقودي.. فقط أريد أن تقول لي أين خبأت مالك.. وإذا أطلعتني على سرّك لك عندي كرامة.. إذا ضاع منك شيء تقف في المكان الذي ضاع فيه الشيء وتنادي.. يرجع لك الشيء في التو واللحظة.. الآن قل لي يا سيدي أين خبأت مالك؟ ". قال الرجل ذو الأطمار للرجل السارق: " الله يخليك من أجل الكرامة التي خصصتني بها.. وأنا أقول لك الآن.. هذه نقودي.. في رغيف عيشي..!

١٦/ ٥/ ١٩٩٠

فخاخ العيون الجميلة

أنا كاتب. كتبت عددا من القصص صادفت قبولا من القارئين وتشجيعا من النقاد، وأحسن استقبالي في كل مجمع يضم المثقفين والناس اللامعين وكان حظًا، وكنت أعود كل مساء راجعًا إلى بيتي في شارع قطر الندى في حي "إمبابة" وتحت إبطي لفة من الكتب والمجلات، وفي قلبي بقايا أنس الأحاديث. نعم البيوت علت في الشارع وبقي قاعه معتما، والمداخل إلى المساكن بقيت دامسة الظلام، والسكة موحلة زلقة في كل الفصول، بما تكب النسوان فيها الماء الوسخ، يخرجن بالدلاء من الأبواب، لكن ابتسامهن، وحسن العيون، وتزاعقهن، وذيول الضحكات تنير. يعلمن بأن كلماتي تنشر في الجرائد وصوري. يصبّحن عليّ، والمساء بخير.

في المساء نقعد قدام التليفزيون، أنا وأمي وأخواتي في ضوء المصباح الكهربي، تلمع العيون السوداء ببريق السرور، ونحن متكئون على الأرائك ونبصق قشر اللب على البلاط العاري. نغرق في الضحك حين الفصول الفكهة ويعلو صوتي مشيرا للمثل: " أنا أعرفه.. يقابلني في المجالس.. يطري كتابتي كل مرة..!! " تطرف ناحيتي أزواج العيون.

لما قلت مثل ذلك على الممثلة المقتدرة، رنت في عيون أمي وأخواتي لمحة من عدم التصديق. إنها ممثلة مجيدة يطاوعها جسدها في فنها، يبقى مأمورا بكلمات دورها، يطول ويشمخ ينثني ويتأود، وذراعها تتوتران وتلينان مع دفق المشد اعر، دفق الإيقاع للحن تحت سلطان العبارة، تشير بيـ دها حيـ ث اتجهت عيناها،بكل السحر في عينيه ا، تعبـ ـر بهم ا عـ ن الازدراء والكراهية والترفع، وتلتوي أي فتنة تبـ دو. آه لـ و كتبت ما تقوله بكيانها العذب.

في ظلمة غرفتي أرقد ولا تغمض عيناي، لا تريـ ان إلا لعب الشخوص من قصص، وإلا الممثلة القديرة، تـ تكلم بكلماتي. يقول لهـ ا الأب: أسـ ـريت إليـ ك هـ دأة المسـ اء، وانصرفت عنك في الهزيع الأخير، يوما بعد يوم بعد يـ وم، وفيما بين ترقبك قدومي عليك، ونظرك في أعقابي منصـ ـرفاً عنك، فيما بين الوقتين وقت ثالث عشت فيه الحيـ اة غيـ ـر مفروضة ولا مسنونة، غير مكتوبـ ـة ولا مشـ ـروطة، غيـ ـر مبتسرة ولا منتقصة من أطرافها، يوما بعد يوم بعـ ـد يـ وم، تخففت فاستطعت فرأيت، دهشت وعجبت وسررت ثم نظرت كأن ذلك بعض موتي، لك وبك يا حبيبة ". وتتكلم هي، هـ ـي

الحبيبة: " لكنني الليلة جربت وقتا ثالثا، لا هو ترقبك قادمًا ولا هو وداعك مفارقا. وقت آخر، لا يؤذن به مؤذن ولا يحدثه تعاقب أفلاك، يستطيل ويعرض، وتتلاطم أمواجه، تأخذني بالظلمة والرعب، لا أعرف شطا ولا قرارا، أموت وأموت، لأعاني بلا نهاية الهول الكائن بين البقاء والفناء ".

وينتهي حلم المساء ولم أنم، مفتوح العينين تأخذني الرعدة، بارد الأعضاء غارقا في عرقي، كتبت المسرحية، أخذتها للناس، قالوا إنها جيدة، حررتها في لفة أوراقي تحت إبطي وذهبت إلى السيدة في المسرح، وكانت جالسة في صفوف المتفرجين. أنظر، لقد استدارت الشبة حيث جلست. أتطلع إليها في علوها، والناس جميعا، وهي مضوأة بذاتها، قلت لها: " إنني كاتب..! " قالت: " أعرف! " قلت من عمق السحر الذي أودى بي بإشارة بنانها وبسمة ونظرة: وكتبت مسرحية! قالت: " تعال.. اقرأها لي.. أنا أسكن في الجزيرة!".

أعطيت ظهري للنيل، ومضيت نحو البناية. في المدخل خرج علي ناس، كل فجوة أبرزت رجلا مشدوهًا يتأملني مذهولا. قلت: أريد أن أرى السيدة! حصل الذعر في

الجماعة، يتنادون، يزعقون، يصرخون، يجرون في كل اتجاه، حتى ظهر زوجها. قال: " ماذا! " رجل أبيض بشع الخلقة قلت: أقرأ لها مسرحيتي! " التوت شفتاه بمنطوقه. قال: " خذ ورقاتك وامض " والتأمت حولي الحلقة من أنفارها يوحّد ملامح وجوههم الإصرار. مشيت محروسًا بغضبهم حتى خرجت.

١٩٩٠

سيدة وحيدة

نحلت حتى بدت كأنها مرسومة على ملاءة السرير، والرسم بالشحوب إلا من رفّة أسيانة عميقة السواد في عينيها، والشوق في ارتجاف باهت على الشفتين، والظلال هنا وهناك، ثم تعتم حتى تصل إلى الدكنة،فتتنهد هي، تعرف امتلاء القلب في أنفاسها.

تسمع صوت الرجلين في مستراحهما، وقد دثرت لهما الحشايا وزينت الغرفة بالنور لهما . الرجلان . ومدت حلو الطعام وما يروق من شرب. يزدهيان الآن بالنعمة، وينتشيان، ويبدو على كل منهما كل لون. تصفو الأصوات تحملها إليها ضحكاتهما مترقرقة متوثبة من قلب ابتهاجهما . الرجلان . آه لو يدوم مجلسهما أبدا، والودّ، إن ذلك يحمل أملا. لكن وشيك تصرم فرحة المساء. اضطرب الرسم بالشحوب على ملاءة السرير من تندي العينين بالدموع.

وكان لهما شأن مع كل بدء، يضطربان بالبدء، يطيران فوقه يريدان أن يتجاوزاه، يجريان في البيت وهي معهما في أول المساء لا يحوشهم باب، الحيطان شفت عن الأصوات وعن روائح الطبيخ. مباهية بما طبخت، تضحك.

يخطفون الأشياء، والخزائن مفتوحـ ـة والسد ـلال. يمـ ـلأون الأطباق حتى يصير الكمال سمة المائدة، وزينة سيدة الـ ـدار. مباهية بما ارتدت، والزواق. يجلسون ثلاثتهم، ثلاثة وجـ ـوه تبرق، الفرحة في العيون وفـ ـي لؤلـ ـؤ الثنايـ ـا، ويتشـ ـرب الاسمرار برائق السرور. الرجلان. تحبهما، رجلها والرجل.

في ذلك المساء أسرعت إلى هنا، طارت إلى مخدعها ها هنا، خفّت بما يعمر الجسد من ظنون فرحة. خلعت عنـ ـا ثيابها. مشت إلى الصوان محلقة عن قـ ـدميها. هـ ـل يختـ ـار هجس المساء ثوب المساء؟ ويحسن الاختيار؟ بان جسمها في المرآة. سُرّت بما رأت. ظلت تتأمل، وتميل وتتثني وتتـ ـأود، وسعادتها ترسم الصورة في المرآة حتى رأته . الرجـ ـل . كأنما ندهته لها الأشواق، أشواق سحيقة. وجاءها.

في نسيانها أغمضت عينيها، في ظنها أسلمته كيانها، ينفطر عن دفق الرغبة. لحظات قصار دامـ ـت فـ ـي الفكـ ـر طويلا. فتحت عينيها لتجد وجه الرجل غارقا في الـ ـذهول، يعذبه النكوص، وهي على هذا الحال، وهو لم يفعل. أفاقت. رفعت يديها لتذود عينيه عنها. الرجل استدار وخرج. مضى. تركها تستر نفسها بالثياب، تحكمها علـ ـى نفسـ ـها، وتتأمـ ـل

الصورة في المرآة، تسأل: أيكتم الثوب الأسرار؟ مشت إلى مستراحهما في الغرفة القصية، إنهما الرجلان، وأحدهما يعرفها بالزواج، والآخر عرفها بما رآه خلسة وعلى ذات فجأة، تقضي معهما المساء المكرس للمتعة.

أيظن زوجها بها الظنون؟ أيأمل صديقه منها شيئا؟ المساء صاخب الضحك والزياط، وتحت الضجة تضطرب الأحاديث المهموسة حتى لا تدركها الآذان ولا الأفهام.. أحاديث تحدس الوهم وتجسد منه الحقائق. يثقلها رجم الشكوك حتى تكاد تختنق، فاستعفت وقامت إلى مخدعها، جاءت إلى هنا واستلقت حيث هي الآن راقدة، الشحوب ممدد، أسبلت جفنيها، وسحَّت من العينين قطرتا دمع.

جاءها الرجل في عملها. لما رأته غشَّاه عليها غشاء من رقيق العبرات. إنه الذي يعرفها. فرحت به، وخافت منه، ورحبت. لكن وجهه غارق في الذهول، يعذبه النكوص. رفعت يديها لتذود عينيه عنها. لكنها رجعت، رحّبت، لزمت الأدب. الرجل في ضيافتها قدام زملائها في عملها. حادثها مجاملا وهي أحسنت الرد. ثم قام خرج، مضى وتركها تتألم لفراقه.

وفي المساء . بعد مسائهما . جاء رجلها إلى هذ ا لكي ينام. تنصت لتردد أنفاسه، تنصت للأحاديث التي تجري من تحت صمتهما في فراشهما، هويتهما وهي تـ دفع ع ن نفسها غيلة الشكوك. عبرت المسـ افة التـ ي تفصـ ل بـ ين جسديهما، الصمت عميق، التصقت به. مدت يـ دها العاليـ ة إليه. أراحت كفها . رقيقا وسيما . على صدره يتحسـ س، يغرق في كثيف الشعر . خشنَا . تموجت يدها بين الخصل والدفء، برفق وقعت يده . كبيرة محيطة . عل ى يـ دها، قبضت عليها، رفعتها، أبعدتها. من ثم تكونت المسافة بـ ين جسديهما، وكان أن رقد الرجل بينها وبين زوجها. الشحوب مستلق، أرق على ملاءة السرير، يتحسـ س الخيـ ال الراقـ د جنبها، تحس بدفئه، يغريها وجهه الحافل بالتردد، تـ رق لـ ه وتبكي.

وإذن جاءها الرجل في يوم عطلتها وهي وحيدة فـ ي بيتها مشغولة بالترتيب والزينة وقد تخففت وتتبدى الأعضاء بآثار من العرق، وتسرب النسائم تجفف وتـ نعس، تريـ د أن تُحَلِّق، تطير على طرفي قدميها، يسمق الحس فـ ي القـ وام، لكنه طرق الباب، وهي فتحت له وهي هكذا متخففة، قال لها:

" أحبك..! " وعيناه طائران تائهان. هك ذا اسد تراحت ف ي حضوره المتسم بالغياب. قالت له حالمة كأنما تحادث نفسها: " إنني مملوكة بالزواج..! " قال لها: " إنني أملكك بالحـ ب " وعلى وجهه صفرة، همس: " تعالي إلـ يّ.. " وجاوبتـ ـه " لا أستطيع..! " قال لها: " لقد رأيت شـ وقك فـ ي المـ ـرآة..! " تعذبت بالرحمة له قالت: " لا.. يا سيدي..! " قام.. أدار لهـ ـا ظهره وكلمها: " تحنثين في عهدك للحب وهكذا للـ ـزوج.. " ارتسم شموخه في قلبها وهي تسمع: " إنني قادم هذا المساء، وكل مساء.. كأنما لم تكوني أبدا..! "

وفي المساء . بعد مسائهما . يرجع رجلها إلى هنا لكي ينام. وجهه بسّام بالمتع. كم ضحكا ولعبا في سـ ـهرهما، ويأتي إلى سريره يغرق في النوم، نوم غير مؤرق بالأحاديث والظنون. وتبقى هي يقظانة.. سيدة وحيـ ـدة.. آه لـ ـو يـ ـدوم مجلسهما أبدا؛ إن ذلك يحمل أملا. في أي شيء؟ تقلَّبت على الملاءة، وستر ليل شعرها تفاصيل ملامحها.

١٩٩٠

إحدى القضايا

في محكمة مصر الجديدة الجزئية زحام من الخلق، متقاضين ومحامين وشرطة وكتبة وباعة وأفراد غامضين، ما إن يدخل الواحد من باب على جانبيه عمودان شاهقان حتى يميل يسارا، يتحذر في مشيته كيلا يصدم الناس، وهم يتّقونه بالأكتاف، وزعيقهم غلاب حتى ما يسمع الواحد حديث رفيقه، وروائحهم وعطورهم وعرقهم، والتبغ سحبه تطير فوق الرءوس، تطيرها كلمات زاعقة وضحكات منكسرة، ونهنهات وسعال ولعنات. من جدول القضايا عرفت السيدة أن دورها سيأتي عند الرقم سبعين. القاعة غاصة بالنساء مطليات الوجوه، والرجال في ثياب خلقة، كل زوج منهما . رجل وامرأته . يشغلهما هم خاص ونزاع، لكن القاعة يرين عليها الصمت إلا من نحنحات وهمسات مكتومة وصوت تقليب الأوراق.

على المنصة قاض يقلب في مستنداته بسرعة وغضب، والحاجب يسند مرفقه على منصة القاضي وينادي على الأرقام. قدام هيئة المحكمة يقف المحامون والمتنازعون يكادون يحجبون الهيئة عن الجالسين. تشرد السيدة تفكر في

أمرها، تتذكر وجهها في مرآة الصبح. كان وجها وسيما، إلا من تجعيدة هنا وأخرى هناك. صراخ القاضي أفزعها، فأصرت على الطلاق.

أمها وجه يغرق في التوسل إليها: " لا تطلقي زوجك يا بنيتي! " وأبوها وخالها قالا لها: " الطلاق حرام يا بنيتي! " وهي الآن سوف تتحرر منه إلى الأبد. أصرت ولا زالت مصرة. شملتها الفرحة بالخلاص، تغطي على رعدة خفيفة غرقت في تيار الفرح، القاضي يطل من بين أجساد الواقفين قدامه، عيناه الحولاوان لا يعرف الواحد من تصيبهما بالنظرات، لكنه صرخ في الحاضرين وهي لا تعرف من يقصد، قال: " ارم السيجارة يا هذا الذي تدخن هناك! " دارت بعينيها تبحث عمن يقصد، إنه يقصد زوجها الذي ستطلق منه حالا، وجهه أبيض من التحرج والمهانة. يا له من رجل هزل في أيامه الأخيرة، وجهه مستطيل وعيناه غارتا، ألقى سيجارته على الأرض وسحقها بقدمه، حولت وجهها عنه والتفتت إلى الأمام، وغرقت في كآبة وحيرة واستعصاء الفكر، تمنت أن تدخن سيجارة، لكن هذا القاضي هناك.

جاء دورها هي وزوجها، وقفا قدام المنصة وبينهما المحامون، بدأ القاضي دورة غضبه يصبها على أول من يصادفه بالسؤال. سأل زوجها: " هل كنت تدخن في قاعة الجلسة؟ "

قال الزوج وهو منهك خفيض الصوت: " إنني لم أكن أعرف أن ذلك لا ينبغي، هذه أول مرة أحضرة فيها قضية! " قبل أن يتم جملته انقض عليه القاضي بسؤاله التالي: " ما اسمك؟ ضابط في القوات المسلحة. لِمَ لمْ ترتد ثيابك الرسمية؟، قدمت استقالتك؟ لماذا إذن تحتفظ ببطاقتك العسكرية؟ إنني أستطيع أن أسجنك بهذا..! " وإجابات الضابط تعجن في أسئلة القاضي، يرعد هذا بكلماته والآخر همساته غائرة تكاد تستحيل إلى لهاث، قال: " إنما أحتفظ بالبطاقة حتى ينتهي أمري فأسلمها! " فصرخ به القاضي: "لست أهلا لحملها، وهذا معاقب عليه! "

والسيدة ترى زوجها على قدر من سوء الحال، وحال من الهوان، قالت للقاضي: " إننا يا سيدي هنا نناقش أمر طلاقنا، فلماذا لا تمضي بالأمر إلى مساره؟ " فصرخ بها: "ألا يمكن أبدًا أن أتحقق من شخصية المتنازعين؟ وأحاسب

من يحمل بطاقة لا يستحقها؟ " فصرخت به تجاوبه: " ناقش طلاقي يا سيدي ولا تهدد السيد بالسجن أيا ما كانت البطاقة التي يحملها! " لوّح القاضي بيده عاليا وقال لها: " أنت تدافعين إذن عن خصمك في القضية يا سيدتي..؟ " فدقّت السيدة على المنضدة بقبضتها وتكلمت في وجهه حتى لفحته أنفاسها: " لا باس عليّ إن دافعت عنه إذا كنت أنت قد آذيته! " فضحك القاضي ضحكة مفعمة غضبًا وثورانًا، وقال لها: "تعطفين على خصمك وتميلين إليه؟ " احمرّ وجه السيدة وفاضت الدموع من عينيها، وقالت: " نعم إذا كنت تؤذيه! " قال لها القاضي: " إذن لا محل للخصومة بينكما؟ " ثم رفع سبابته وصوبها إلى وجه السيدة: " إنني سأشطب القضية من الجدول " فانفجر غضب السيدة وتصاعدت نهنهاتها حتى ملأت القاعة، قالت له: " افعل يا سيدي.. افعل يا سيدي..! " مال القاضي على كاتبه وكلّمه أن يشطب القضية، ثم نظر للسيدة شمتانَ: " هل رأيت..؟ " فقالت له: " نعم رأيت.. لقد رأيت! " فقال لها: " خذي زوجك واذهبا..! " مدت السيدة يدها وقبضت على يد زوجها وقالت للقاضي: " نعم سأفعل " وطاوعها زوجها.

١٩٩٠